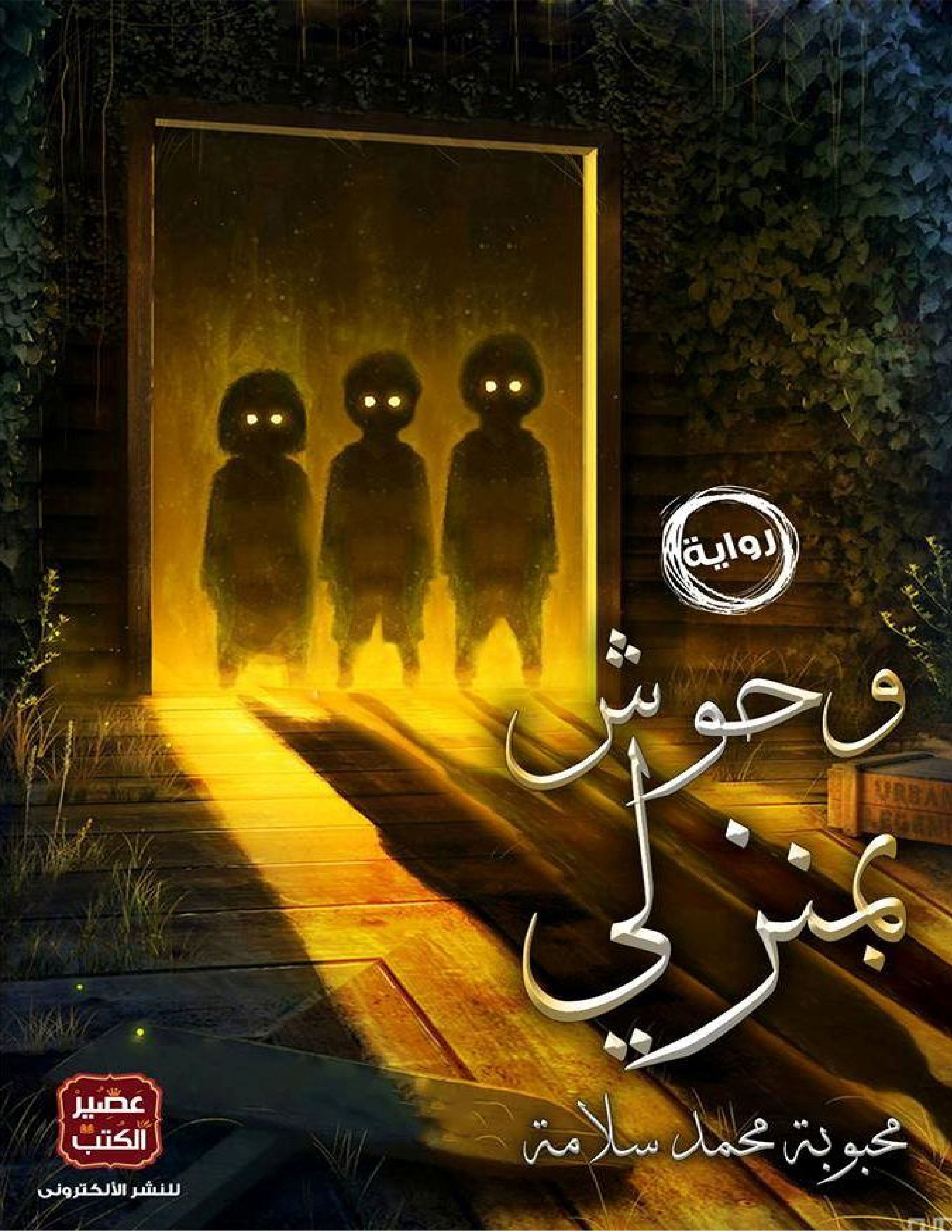

رواية
وحوش بمنزلي
محبوبة محمد سلامة
عصير الكتب
للنشر الألكترونى

http://book-juice.com

وحوش بمنزلي

المؤلف : محبوبة محمد سلامة

نشرفي : أكتوبر ٢٠١٤



محبوبة محمد سلامة

وحوش بمنزلي

(رواية)

المقدمة

انتفضتُ في يوم من نومي على احساس ألهب عقلي .. أيدي تتحسسني وتنهشني .. حاولتُ التملص والهرب لا مفر ولا مقر ، اختلطت انفاسي بانفاس من عند رأسي وهو يقترب من وجهي ويتحسس خدّي وأنفي ، حاولت فتح عيني لكن شعور من الارهاق والتعب قد أنهكني

صرخت بداخلي .. ابعدوا عني

لكن الصوت لم يتعدى حدود عقلي وفكري .

في لحظة سئلت نفسي .. هل أتمنى الموت الآن أم أنتظر قليلا ؟

وصدع الرفض في رأسي معلنا ان هذا التمني سيكون دليلا على الاستسلام والهزيمة .

عدتُ لواقعي وحاولت تبين الأحداث من جديد فشعرت بالايدي .. اثنتان عند رأسي .. واثنتان عند خصري .. واثنتان عند قدمي

وبمعادلة سريعة .. ثلاث أفراد .

فتحتُ عيناي بعد توسلي لها لتنفتح وتدع عنها سلطان النوم وآثامه فالنوم لم يعد مسموحا لي بعد الآن .

ووقعت عيناي أول ما وقعت على من تخالطت أنفاسي معه وبمجرد أن رأى عيناي ابتسم بانتصار فقد وصل إلى ما أراد وانهزمت أمام جبروته وقوته وخرجت من عالمي وعدت لعالمه الذي يكون هو فيه السيد وانا خادمته .

وما هي الا لحظات وقد اصبحت الأيدي التي كانت في الأسفل مع أخواتها في الأعلى ونظر ثلاثتهم إلي بنظرة البراءة وأيديهم تضربني بكل طفولة وقسوة موضحين نيتهم في السهر اليوم ككل يوم غير مستعدين لتغير روتينهم لمن هي مثلي .. أمهم .

***

الجزء الأول

<خلاص يا ماما أنا قررت أمشي>

ظللت أردد هذه الكلمات لأمي وأنا أقنعها بضرورة رحيلي ، وكان أغلب أمرها العجب من موقفي
فكيف أرحل ولم يمر على ولادتي إلا أسبوعان !

لكني لم أمهلها لتفكر وأعدت كلماتي ثانية وقد ظهر الحزم والعزم في كل حرف يخرج مني
.

وبعد اصراري لم تجد مهربا الا ان توافقني وتسمح لي بالرحيل انا وتوائمي الثلاث ،
وعقلي يصور ليسهولة كل شئ وأي شئ .

وجدت أختي تتصل بي وهي تنهرني بشدة :
يا بنتي انت مجنونة !
ايه الي يمشيكي دلوقتي والعيال مين ها يراعيهم معاك !
والله انت بتستعبطي .

وكانت إجابتي :
انا برضه باستعبط !

انت ناسية ان اختك بتمتحن وأمك مش حمل مراعية اولاد بالوضع دا وطبعا ابوك ان كان مش عاوز يزعلني ويتكلم فانا من غير ما يقول لازم اخلي عندي دم ازاي راجل في سنه يستحمل صريخ ثلاث اطفال في وقت واحد !
انا مش بستعبط .. انا بحاول ما ضايقش الي حواليا .

وأنهيت المكالمة وانا أقنع نفسي وأبث فيها كلمات التثبيت والتشجيع على مهمتي الجديدة .

وعبرت باب مترلي وأنا لا ادري اين أضع كل منهم !
وضعت واحد على سرير الاطفال والثاني على كرسي غرفة المعيشة والثالث على التسريحة ، أسرعت بتجهيز سرير غرفة نومي وحجزت جوانبه وعدت لثلاثتهم لأنقلهم للسرير

وأخذت من كان على التسريحة ووضعته بعرض السرير ثم من كان على سرير الأطفال والثالث .... لم أجده !
أخذت أتلفت يمينا ويسارا وأعيد خطوات دخولي للمترل واستلام الاولاد من البوابة التي ساعدتني في الصعود بهم
بحثت وبحثت .. لا يستطيع عقلي الاتيان بمكان ثالثهم

حينها دق الباب وكان زوجي وقد أحضر متطلبات لبنهم ودخل لغرفة المعيشة ليضع الحاجيات وما ان دخل حتى ناداني :
انت سايبة الواد هنا ليه ؟

فأجبته بكل براءة :

واد مين ؟

ونظرت بالداخل ووجدته نائما على الكرسي غير واعي لبحثي عنه ، فأسرعت إليه وذهبت به بجانب إخوته على سرير غرفة النوم وكان ثلاثتهم ما زالوا نائمين

للحظة فكرت ان هذه المهمة تتسم بالهدوء فحمدت الله على ذالك وأغلقت النور لأخرج لزوجي

وما إن التفت بجسدي خارج الغرفة حتى صدع صراخ أولهم فأسرعت إليه أهدئه وحملته لأخرج به كي لا يوقظ إخوته وما إن خرجت من الغرفة حتى أتى صوت ثانيهم فحملته بيدي الثانية واسرعت بالخروج

لكن أتى صوت ثالثهم وهو يصرخ وكأنني أشعر به يضحك علي وعلى خطتي الخاسرة أمامه ، فعدت إلى السرير ووضعت الإثنان بجانب اخوهم ونظرت لهم وكل منهم يصرخ " منددا بالعذاب الذي أسقيته إياه " فهذا أقل ما يوصف به بكاءهم

وعلا وعلا صوت الصراخ ، وشعرت بجسدي يسخن من أثر صوقم ورأسي تكاد تنفجر وتجمعت في عيني دموع القهر
ورأيتهم كوحوش قد سكنت عالمي بملامح طفولية بريئة تخدع الأعين ويتملكوا بها القلب فصرخت بأعلى صوتي :

بـــسسسسسسسس

وخرجت من الغرفة وذهبت لمكان زوجي ورأيته وقد أفرغ حاجيات اللبن والمياه المعدنية وزجاجات الارضاع

فنظرت له بأسى قائلة :

انقلي الليلة دي كلها هناك جنب السرير وابقى اسئل عليا من فترة للتانية لا يكون جرالي حاجة .

*****

تعلمت درسا من صغري أن أكثر ما يسعدني يشقيني ، فما زلت منذ طفولتي أتذكر ذالك اليوم الذي قرر قريب لنا أن يبني طابقا فوقنا ، وأتذكر كم أسعدني ذالك الخبر وأدخل السرور على قلبي وما بين الليل والصباح تم نصب السقف فوق الطابق الجديد ، وجاء عليّ الصباح وخرجت أمام باب طابقنا وقد توقعت وجود الشمس وضوءها وهو يتلقاني مثل كل يوم فينعشني بدفئه .. لكني بديلا عن ذالك وجدت ظلاما فنظرت فوقي فإذا بطابق قريبنا وقد حجب عنا الشمس وضوءها ، حرارتها ودفئها فعلمت حينها أن بالأمس كانت آخر زيارة لنا من ش..

الجزء الثاني

مر أول يومان لي دون نوم تماما ، فجأة عرفت معنى الجنون من قلة النوم

نام اثنان وظل ثالثهم يبكي بدون سبب

غيرت حفاضه ، أطعمته حتى اكتفى ، اعطيته دواء المغص ، أخذته في حضني كي يهدأ

وكل هذا وما زال يصرخ خ خ خ

أكاد أجن .. أصمت .. يكفيك .. ارحمني

لكن يا ليته يفهم ، بدأت اربت علي ظهره حتى وجدتني أردد سورة الفاتحة ثم أوائل البقرة وأنهيت أول ربع ووقفت ولم أعد استطيع التكملة

يالله أين ذهب الحفظ !

ما الآية التي بعدها ؟

ثم اكتشفت انه نام على يدي وأنا لا أشعر ، فابتهلت فرحا ، أخيرا سأنام ، ووضعته جانب إخوته ودعوت الله

دعوت وأنا أبكي ودموعي تغرق وجهي وشفتاي ترتعد

يارب ما يصحوا لمدة يوم علشان الحق أنام لي شوية..

اتظنونها أنانية مني!

هذه ليست أنانية بل جنون ، عقلي لم يعد يفرق بين الأنانية والواجب ، جسدي منهك وفكري مشتت ولي يومان لم أخرج من غرفة نومي الا للضرورة القصوى وزوجي يحضر لي طعاماً جاهزا عند عودته من العمل

رؤيتي صارت مشوشة ، نظرت للسرير وجدته وقد امتلأ أطفال
ما يقرب من العشرة كلهم على السرير .. كدت أصرخ من الفزع ،إنه كابوس مخيف لا بد أنني نائمة
لكن يا ليته كان كابوسا كنت حينها سأفرح لأنني ذقت طعم النوم
لكنه ضعف رؤية وتشوش من قلة النوم جعل عيناي ترى ما لم يتواجد في الحقيقة

عدت إلى السرير ونظرت في الساعة .. الرابعة ودقيقتان

وضعت رأسي و.. وواااااااااء
قمت فزعة وأنا أهتف :
إيه في إيه .. إيه الي جرى ؟

نظرت حولي لقد استيقظ ثلاثتهم .. لا بد أنني نمت

أخذت أمسح على عيني فأكاد لا أرى من أثر النوم عليها

أمسكت الهاتف وجدت الساعة ... الرابعة وسبع دقائق

نزلت مني بدون أن أشعر عبرة ساخنة

نزلت لتعبر عن القهر والتعب والارهاق الذي تملكني وعلى خمس دقائق نوم حظيت بهم بعد يومان كاملان كنت محرومة من النوم فيهم ، كلما نام أحدهم استيقظ الآخر وكأنها دوامة لا تنتهي وخطة محكمة للقضاء على دفاعاتي أمامهم

. مددت يدي تجاة افواههم ، اسرعوا بالالتفات لها ، فعلمت أنهم جوعى

هذه المرة ثلاثتهم يريدون الطعام
كيف سأحل هذه المشكلة ؟

أخذت أفكر..

وضعت اثنين منهم على صدري وثالثهم أعطيته زجاجة اللبن وأسندها بقدمي
تألمت كل خلية بجسدي
طفلان .. كل منهما يرضع مني وألم ظهري يقتلني
صرخت من الألم و.. وأفزعتهم

أنهيت هذه الفكرة بعدما وجدتهم قد أخرجوا كل ما رضعوه من اللبن على ملاءة السرير
تحيرت فهذه ليست أول مرة يفعلون هذا بعد رضاعتهم للبن الطبيعي

حاولت محاولة أخرى

أمسكت زجاجتين لبن كل واحدة بيد وألقمتها لإثنين اما الثالث فلم أجد إلا قدمي لتكون هي مسندها ، ثم ما لبثت يداي وقدمي أن تخدروا جميعا

نظرت إليهم بيأس وعقلي يكاد ينغلق من قلة النوم وضعف التفكير وتشوش الرؤيا .. ثم خطر ببالي ..

اسرعت لجوارب والدهم وطبقت كل زوجين معا ثم بحرف الجورب حشرت زجاجة الرضعة ونيمت كل منهم على جانبه وسندت وراء ظهره بوسادة ووضعت الرضعة بالجورب وقربتها من فم كل منهم

نظرت لهم وأنا راضية باختراعي الجديد ، وفي نفس الوقت لا أكاد أشعر بما حولي من الإرهاق ، وأمسك نفسي من التفوه بأي كلمة أندم عليها بعد ذالك وأكون بها قد رفضت نعمة قد أكرمني بها الله

ما زال الصراخ يعلو ، لماذا لم يصمتوا ، اليس الطعام معهم ؟

اقتربت منهم وكانت المفاجأة ..
أولهم : قد أعطيته زجاجة فارغة
ثانيهم : قد أعطيته زجاجة ببودرة اللبن بدون الماء الذي يذاب فيه
أما ثالثهم : فقد أعطيته الزجاجة بالماء بدون بودرة اللبن

اسرعت بأخذ الرضعات منهم وأنا أردد ودموع عيني تغلبني :
آسفة والله العظيم آسفة
والله ما اخدت بالي .. اصلي مش شايفة كوييس .. معلش والله ما هكررها

وظللت أعتذر لهم وكأنهم يفهمون أو يعقلون
لكن ما غلبني يومها هو أنني تهاونت بحقهم وكدت أوديَ بهم
فأولهم كان يرضع هواءا فقط سيسبب له آلام في معدته
وثانيهم عذبته بزجاجة تحمل بودرة اللبن وهو يجذبها لكن لا سبيل لإطعامه

أما ثالثهم فكيف أشربه ماء وعمره لم يتعدى أيام .. كيف ؟

كيف أهاون بحقهم هكذا وأنا أمهم من ترعاهم وتشعر بهم وترأف لحالهم ، إن لم أنتبه أنا فمن سينتبه ؟

دخل حينها زوجي وقد انتفض لمنظري فسئلني ماذا حدث ؟

فقصصت عليه وأنا أبين له ندمي وأسفي

لكنه أطرق رأسه قليلا ثم قال :

دلوقتي الساعة خمسة معاك لحد الساعة سبعة وبعدين هاصحيكي

لم أصدق أذني هل ما يقوله صحيحا ؟

هل يعرض علي النوم ساعتين كاملتين ؟

فأكمل وكأنه سمع أسئلتي التي برأسي :

ايوة .. ياللا قومي نامي وانا هاراعيهم الساعتين دول

سئلته وأنا خائفة أن يعود في رأيه :

طب والعيال !

فأجابني :

ما تقلقيش هحاول أمشي نفسي الساعتين دول وبعدين أنا أخدت بالي منك وانت معاهم بتعملي إيه وهحاول أقلدك

قمت وأنا لا أصدق نفسي .. فنظرت له نظرة أخيرة وأنا ممتنة له بكل جوارحي وفكرت بأن أذهب إليه وأقبل جبينه ويده كما أفعل دائما عند شكره لكن نظرت لباب الغرفة وشعرت بنفسي أطير اتجاهه

وكأنني أسمع صوته خلفي يسئلني عن شئ .. لا أدري ما هو

لكن هذا لم يوقفني ..

فالآن لي موعد مع من جفاني من فترة طويـــــــــــــــــــلة

موعدي مع .... النـــوم .

*****

أنا لا أحب أن أخدع نفسي عن نفسي ، أو أخدع أقرب الناس عنها ، لكن لكل طاقة مصدر ولكل مصدر عِلة ، فإن ذهب عني المصدر والعلة فما للبقية من مِلة ، فطاقتي محسوبة وقوتي منهوبة ومصدر طاقتي بطعامي ، وعلة طعامي بقيامي ، فإن ذهب عني الطعام والقيام فليس لي على الجسد حينها من مأخذ أومطلب

الجــــــــزء الثـــــــــالـــــــث

ظل عقلي يحلم بهم حتى وهو في وقت راحته ويعيد ذكرى اكتشاف الحمل .. وأنني أحمل ثلاثة أجنة بداخلي ورؤيتهم بالأشعة التلفزيونية وفرحة الأسرة جميعها بذالك الخبر و ..

انتفضتُ على صوت هاتفي المحمول وهو يرن بجانبي نظرت به فوجدته زوجي ، أغلقت عليه المكالمة وانتصبت من مرقدي ، أعدت النظر إلى الهاتف وجدت الساعة التاسعة .

شعرت بالضياع لحظة .. كيف نمت ؟ وكم المدة ؟
أحسست بشئ يقلقني لا أدري ما هو !

حتى صدمني فجأة ذكراهم ، أسرعت بالخروج من الغرفة واتجهت لغرفة النوم ، وكلما اقتربت من باب الغرفة علا صوت البكاء ، حتى دخلتها ووقعت عيناي عليهم ..

وجدته واقف بمنتصف الغرفة حامل ثلاثتهم ومحوطهم بيديه ويهزهم حتى يصمتوا ، وقد احمرت عيناه وأظنني رأيت فراغاً من الشعر برأسه،
وتلونت ذراعاه بلبن رضعاتهم ، أما ملابسهفلا داعي لإحراج الرجل أكثر من ذالك .

نظر إلي وابتسم بإرهاق وهو يقول :
أظن وجِّبت معاك آخر واجب أربع ساعات نوم مش اتنين علشان تعرفي اني بقدَّرك أهه .

ضحكت له وأنا أغيظه :
هما عملوا حاجة دا أنا يادوب حطيت دماغي لاقيتك بتتصل

انزعجت ملامحه قليلا ، فأسرعت إليه وقبلته على جبينه قائلة :
أنا مش عارفة أشكرك إزاي .. الاربع ساعات دول جددوا نشاطي من أول وجديد ..
ربنا يخليك ليا وما يحرمني منك .

ربت على كتفي بعد ما وضع الأولاد على السرير وابتسم لي ثم غادر الغرفة .

نظرت لوحوشي الصغار وكأن لهم غيبة طويلة عني ، أخذتهم في أحضاني وبالطبع حالهم يسمح فحجمهم صغير جدا ثم أعدتهم لمكانهم ثانية وبدأت في تجهيز حفاضاتهم لأغيرها

حينها دخل زوجي ثانية وهو يقول :
على فكرة العيال ما رجَّعوش معايا خالص رضعيهم انت طبيعي دلوقتي علشان نعرف ايه الي تاعبهم الصناعي ولا الطبيعي ؟

حاولت إرضاعهم اللبن الطبيعي لكن بمجرد أن ينتهوا من الرضعة حتى يفرغوها ثانية على ملابسي والملاءات

وجدت الأمر مزعج ولم أعد استطيع الإنتظار ، حدثت طبيبة أطفال وقالت لي بضرورة عرضهم عليها في أقرب وقت ، وتحدد الموعد ثاني يوم

عاد زوجي من العمل وقد أحضر معه أخي ليساعدنا في حمل الأولاد حتى لا يحمل أي منا اثنين في وقت واحد ، خشية العين والحسد

وذكرني زوجي بقصة نبي الله يعقوب حينما طلب من أولاده ان لا يدخلوا من باب واحد
<يا بنيِّ لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة>

وقرر أن يدخل كل منا بمفرده ونأخذ وقتا بين دخولنا حوالي خمس دقائق ونجلس في أماكن متفرقة ، ووافقته الرأي .

وجئنا للعيادة وفعلنا كما اتفقنا لكن ما لم نحسب حسابه هو عندما جاء دورنا دخل ثلاثتنا في وقت واحد وتسلطت النظرات والهمسات .

خِفت على أولادي وتمنيت أن لم أحضر ، فقد تعبت بهم ومن أجلهم ومن يراهم يرى طفلا جميلا رقيقا كالملائكة لكن حقيقة الأمر اختبار وعمل شاق نقوم به ليخرج هذا الطفل بهذه الصورة .

وجدت نفسي اضم من كان معي لصدري واحتضنه بشدة كأنني أخشى عليه الهواء المار والرياح الحاضرة .

دخلنا للطبيبة وبعدما كشفت على الأولاد نظرت إلي ثم قالت :
عندك كام سنة يا مدام ؟

تعجبت من السؤال :
ليه في حاجة حضرتك ؟

الطبيبة :
لا أبدا بس لازم أعرف سن الأم ومقدار تعليمها علشان أشوف ايه هي الصورة المناسبة الي اقدر اتكلم بيها معاها

تعجبت من اجابتها لكن لم أجد إلا ان أجيبها :
عندي ثلاثة وعشرين سنة وواخدة الليسانس من سنتين

الدكتورة :
طب ما شاء الله انت صغيرة اوي على الحِمْل دا بس ربنا يعينك ان شاء الله
دلوقتي يا مدام حضرتك لبنك ما ينفعش يرضعوه لأن معدقم صعب تتقبل نوعين لبن
..الصناعي والطبيعي ...و

ظللت أستمع لها وأنا أتعجب من حالي فأنا لم أشتكي لأحد إلا الله حينما صرخت من ألم ظهري وأنا أرضعهم ، لم أتحدث مع أحد وأنقل له ألمي حتى لا يظن أحد أنني أبخل عليهم باللبن الذي ساقه الله إليهم ، لم أرد أن أكون سببا في حرمانهم وكلما تألمت كلما أصررت على إرضاعهم حتى أثبت لنفسي أنني لا أهرب من هذا الأمر بل سأتحمل من أجلهم .
غلبتني عبرة وجدت طريقها لوجنتي وأنا أستشعر بالصغر أمام رأفة الله بي ورحمته لضعفي .

انتبهت على صوت الطبيبة وهي تؤكد أن هذا الأمر بمصلحتهم فاللبن الطبيعي يجعلهم يفرغوا ما بمعدقم وهي تخشى عليهم من الجفاف .

انتهت زيارتنا للطبيبة وعدت للمنزل وأنا أحلم بساعتين نوم وليس أربع كاليوم سابقه لكن حلمي لم ولن يتحقق فقد وجب على زوجي النوم ليستطيع الاستيقاظ ليلحق بموعد عمله في الصباح .

ومر الليل ككل ليل أحارب فيه بمعاركي الخاصة مع الحفاضات والأدوية والرضعات والصريخ والبكاء

حتى اجد نفسي لم أعد أسمع أو أرى أو أشعر ..

وأسقط على وسادتي كمن فقد الوعي أو اغتُصبَ منه ، لأستيقظ بعد ثلث ساعة وقد أعيدت الحرب لبدايتها لكن مع كل مرة تغيب دفاعاتي وأصبح كجسد تسلب منه روحه وتتقيد أطرافه .

عند الواحدة ظهرا اتصل بي زوجي ليطمئن على حالي ثم أضاف أن والدته ستقابله في اثناء عودته من العمل ، لهذا أراد أن يحدثني ليعلمني بإمكانية تأخره قليلا

سئلته ألا تعلم سبب مقابلتها لك لكنه أعرب عن جهله السبب ، ثم أنهى المكالمة

وعدت أنا لأفكاري وكلما جاءت فكرة وحيدة برأسي أبعدها فورا فمستحيل أن تفعل هذا !
لا أظنها ستفعل ، فهي تعلم أنني لن أقدر عليها الأن

وظلّت رأسي تبرز بها الأسباب تلو الأسباب حتى سمعت جرس الباب وفتحته وكان زوجي ومعه ..

ابنتي ذات الأربعة أعوام التي أرسلتها لوالدة زوجي لترعاها حتى أتآلف مع وضع الأولاد الجديد.

لكن يبدوا أن حماتي وجدت أن يومين كافيين لي تماما لأكون قد رتبت حالي وكيّفت جميع أموري .

واقتربت مني ابنتي وهي تقول :

تـــــيتـــــــــا قالتلي ان انا وحشتك خالص فقلت آجي بقى ما دام انت عايزة تشوفيني ، وقفزت إلى حضني ، ومع أثر قفزها مادت بي الأرض تحت قدمي ، وحلم الساعتين الذي أحلمه من بداية اليوم يتبخر فوق رأسي .. وابنتي تقفز وتقفز .. والتوائم الثلاث يصرخون على السرير .. وهاتفي علا صوته بالرن .. وابنتي ما زلت تقفز وتصرخ من الفرح لرؤية اخوها .. وعقلي يصور لي كيف ستكون الأيام القادمة..ومع قفز ابنتي صدمت جرح القيصرية

وأظلم المكان من حولي ولم أعد أشعر بأي شئ .

*****

هل للكرم من غاية !

أم النذالة هواية !

هل لو كنت بأرض بدائية حيث الحياة في المزارع والرضا بالطلائع ، لا سقوف ولا جدران ، ولا خبايا ولا زوايا ،حيث يجد النابت هناك من الطبيعة الطاهرة ما تهنئ به نفسه ، ومن لذة العيش ما يطعمه ويشربه من عرق جبينه نهلات باردات أصفى من المرآة وأطهر من الكوثر ، كنت حينها سأرى نفوس من حولي وقد اكتسبت من أرض سكناها الطهر والنفع أم ستلوث تلك النفوس أرضها وتسقيها صفاتها من صنوف النذالة وأنواع الخدع

الجـــــزء الرابـــــــع

لم أدري كم استغرقني من الوقت لأستعيد واقعية المكان من حولي
فتحتُ عيناي وأول ما رأيت كان وجه زوجي وعيناه تحمل الكثير من الألم لأجلي

فسئلته بشفاه مرتعشة :
ايه الي حصل ؟

ولكنه لم يرد بل اكتفى بسندي وإعطائي بعض الماء ، ثم قال :
عاملة ايه دلوقتي ؟

أجبته وما زالت رأسي تدور :
الحمد لله .. هو ايه الي حصل؟

أجابني :
انا مرة واحدة لاقيتك واقعة في الأرض قعدت افوقك ما فيش اي استجابة منك خالص لحد ما فات خمس دقايق وبعدها انت فتحتي عينيكي لوحدك .

أخذت أتلفت حولي فأنا أذكر أنني رأيتها ، حتى وقعت عيناي عليها وكانت جالسة على أحد الكراسي ، ضامة يدها إلى صدرها وتنظر إلي بجزع ، حينها تذكرت كل شئ ..

ناديتها :
تعالي حبيبتي ما تخافيش أنا كويسة .. تعالي دا انت وحشتيني

وضممتها لصدري وشعرت بدفئها بين ذراعاي وتمنيت لو أنال بعض النوم وهي بحضني كما كنا بالسابق ، لكن جاء صوت وحوشي الصغار ليعيدني لأرض الواقع ويمحوا أحلامي حتى ولو كانت أملاً حدثت به نفسي .

دخلت لثلاثتهم لأرى ما يزعجهم هذه المرة ، وبعد نصف ساعة جاء زوجي وقد جهز طعام الغذاء ، ووجدت ابنتي وقد غيرت ملابسها واغتسلت

نظرت له بامتنان

تمنيت أن أقول شيئا لكني أمسكت لساني .. فأنا أخشى انني لو اتيحت لي فرصة الكلام معه سأطلب منه أن يعطيني ساعتين نوم .. وهذا لن يصلح اليوم فالوقت تأخر ووجب أن ينام هو ليستعيد نشاطه من أجل عمله بالصباح .

فتحت لابنتي فيلما كرتونيا على الكمبيوتر وظللت أراقبها طوال الوقت ، وساعدني هذا في الحد من طلباتها الدائمة ، وسبحان الله أفلح الأمر معها .

وظل حالي طوال الليل مثل كل ليل لكن اختلف الأمر قليلا فبين كل ساعتين أجد مجالا للنوم حوالي ثلث ساعة

أنامها وقبل أن أضع رأسي على الوسادة أدعوا الله أن يبارك لي فيها

مر يومان وأنا على نفس الحال .. حالتي تتدهور وصحتي تضعف .. ما بين كل ساعتين أو ثلاث تتصل والدتي للإطمئنان على حالي وتشجعني بكلماتها وتنصحني بتوجيهاتها وفي النهاية تعتذر من جديد على تقصيرها معي .

فوالدتي تُقَدِر تعب التوأم لأنني أنا وأختي توأم لكن حينها كانت هذه ولادتها الأولى فلم يكن عندها ابنة أولى مثلى وكنا توأم ثنائي أما أنا فرزقني الله بالتوأم الثلاثي ، لهذا هي تشعر بالتقصير لانها سبق أن مرت بتجربة شبيهة لكن ظروفها الحالية تمنعها من المساعدة .

أنهيت مكالمتي معها على رجوع زوجي من العمل وكان الأولاد نائمين ، ذهبت إليه وأن أخبره أنني أريده في أمر هام

وكان هذا الأمر أنني أريد إنزال ابنتي الحضانة لأستطيع رفع بعض الحمل عني .

أطرقت رأسي قليلا ثم قلت :

أنا ها نزل بنتنا من بكرة الحضانة

سئلني :

مش صغيرة هي على النزول

أجبته :

لا ، مش صغيرة هي عندها اربعة ونصف ودا سن مناسب وبعدين حرام كدا أراعيها ولا أراعي العيال الصغيرة ، علشان خاطري افهمني .

وجدت الدهشة ارتسمت على وجهه وهو يردد :

أفهمك !

وانا من امتى مش بفهمك ، انا موافق انها تنزل الحضانة على الاقل وقت الصبح تعرفي حتى تقوم تفطري وانا كل يوم ارجع الاقيك ما لحقتي تاكلي حاجة من كتر ما مشغولة مع الاربع أولاد

أنا مش فاهمك ؟ .. أنا أكتر واحد فاهمك ومقدر الي بتعمليه .. وعارف انك صغيرة على كدا .. بس انا متأكد أنك أد المهمة الصعبة دي .. اوعي تتخيلي انك لوحدك ..دول اولادنا احنا الاتنين وزي ما انت تعبانة معاهم انا ناوي اتعب معاك كمان .

هزّت كلماته كل خلية بجسدي ولم أشعر الا بسخونة تجري على خدي ،وقلبي يرتجف من السعادة ، أخيرا وجدت من يترجم بعضا من آلامي ويرفعها عني .

لم أحتج يومها أن أطلب منه أن يعطيني ساعتين نوم ، فلم أكن احتاجهم فنفسيتي تغيرت كثيرا بعد كلماته معي .

ذهبت ابنتي للحضانة بعد ما مر عليهم زوجي واتفق لأجلها .

على الظهيرة شعرت بألم قاتل في وسطي ، اسرعت إلى الحمام وما هي الا لحظات وقد وجدت مكان عملية القيصرية مياه تخرج من جسدي

ارتعت للمشهد ، فالمياه لم تكن كثيرة لكنها بعقلي مفزعة ، ارتفع صوت بكاء ثلاثتهم ، وشعرت بالدوار ، لم اعد أدري ماذا أفعل

فتحت باب الشقة وأسرعت لجارتي وأنا أمسك بطني من الألم سئلتها أن تسعفني ولكن ..

أخبرتني أن زوجها موجود ولا تستطيع ازعاجه بصوت الأطفال

سئلتها بإلحاح المساعدة وذكّرتها كم راعيت طفلتها الرضيعة عند نزولها لكنها اجابت:

ان زوجي لم يكن موجود بالوقت الذي تعطيني اياها بعكس الحال الآن ، ثم قالت لي سلامتك حبيبتي ، ودخلت وأغلقت الباب .

عدت لشقتي وشعور الذل قد ملئني وآلمني ، فأمسكت الهاتف واتصلت بطبيبتي ، فهدئتني وأخبرتني كيف أتفاعل مع الأمر بعد ما بينت لي أنني بسبب كبر حجم بطني في اثناء الحمل تكون في أسفل البطن ورم مائي ، وقد بدأ الآن التفكك ، ووجد أضعف مكان وخرج منه .

حمدت الله أن الأمر هين واتصلت بالصيدلية ليرسلوا لي الأدوية
وحمدت الله أكثر وأكثر أن ابنتي لم تكن موجودة فمشهد ألمي لم يكن ليفعل بها الا أن يروعها .

عاد زوجي من العمل وأحضر معه أرنبا مذبوحا وقال لي :
لازم تتغذي شوية بقى

ودخل إلى المطبخ وسمعته ينادي ابنتي لتساعده في الأكل .

اسندتُ رأسي على السرير واتكئت بجسدي على الوسادة ودعوت الله أن يرزقني الصبر على هذا الأمر ويعينني عليه

ثم أنهيت دعائي ونظرت لثلاثتهم وأعينهم تتثاقل بطريقة لم أرها من قبل ، أخذت أتذكر آخر وقت ناموا به كان الظهيرة والآن المغرب ، لقد أطالوا ااالاستيقاظ فهل سيطيلوا النوم ؟!

رفعت رأسي إلى السماء وأنا ابتسم
فقد أجاب الكريم دعائي وأنا لم أقم من مكاني بعد

أسرعت إلى المطبخ ووجدت زوجي يخبرني أنه بعد الطعام سيعطيني ساعتين لأنام فيهم ، لكني ابتسمت له بسعادة

وأنا أقول :
مش هاحتاجهم .. ربنا بعتهوملي خلاص

وقبّلت جبينه وأسرعت عائدة إلى سرير نومي ونظرت لثلاثتهم نظرة أخيرة فانتفض قلبي من فرط سعادتي ..

فوحوشي كانوا كالملائِكةِ نِيامَا

والُحمْرةُ اِتخَذَتْ من خُدودِهم زَانا

والرؤسُ مائلة والبطونُ مَلْئانا

وأيديهمُ التحمتْ وتكاتفتْ شَانَا

والمشهدُ أذهلَنِي بِعَظيم نِعمَانَا

*****

أكثر الأمهات يعِشن في نفوس الناس أكثر مما يعِشن في نفوسهن ، فحياتهن بهذه الدنيا حياة ضمنية مدخلة بحياة غيرهم ، فلو فتشت عن نفوسهن لوجدتها في عيون الناظرين ، أو آذان السامعين ، أو أفواه المتكلمين ، وحياتهم مرهونة بتلك الجوارح ، فالنظرة ما بين امتنان وامتهان ، والكلمة ما بين عرفان ونكران ..

فبأي الحالين سيكون نصيب الأمهات !!

الجـــــــــــزء الخـــــــــامس

أنهيت شهرا بمنزلي مع الاولاد بدون أي مساعدة ، الا ما جاد به زوجي علي وما أكرمني الله به من الصحة والعافية .

وذات يوم اتصلت بي أمي تخبرني بنيّتها لزيارتي ، وكان ما هالني هو أن وضع الشقة لا يسمح بزيارات ، ووضعي أنا لا يسمح بمقابلات .

فقد تعمدت منذ عودتي بعد الولادة أن لا أرى وجهي بالمرآة ، وطوال هذا الشهر لم ألمح صورة وجهي ، أما في ذاك اليوم انتصبت من على السرير ومشيت بخطوات مرتجفة إلى المرآة ، وكأنني سأرى شبحا بها أو سيطل علي أحد سكانها .

ووقفت أمام المرآة ورفعت وجهي إليها وتأملت تلك الملامح
التي أظنني أعرفها منذ زمن بعيد ، تألمت لحالي ، اقتربت من المرآة وألصقت وجهي بها كأنني أتأكد أنني صاحبة هذا الوجه .
فرأيت وجهي وقد نُزفت منه الحياة ، حينها رفعت يدي لأنظر إليها فصدمني اصفرارها وجفاف جلدها .
أدمعت عيناي من منظري وكأنني من ضحايا حرب نُزعت الرحمة من قلوب فائزيها فجاروا على خاسريها .

انتبهت على صوت بكاء ثلاثتهم وهو يعلو من خلفي .. وضعت يدي على أذني لأمنع عني أصواتهم .. غادرت الغرفة مسرعة إلى أبعد مكان عن موضعهم وأنا أردد بحرقة: انتم السبب .. انتم السب

وما هي إلا لحظات وقد غلبتني رأفتي بهم فعدت إليهم وضممتهم إلى صدري ، ومسحت على رؤسهم ، وأنا أتأمل ملامحهم الصغيرة ونسيت كل ما أهمني وأحزنني منذ دقائق .

جاءت أمي ومعها أخواتي ولم تكد تراني حتى أخذتني في أحضانها ومسحت على رأسي بيدها ، وكأنها بكل مسحة عليّ تزيل بعضا من ألمي وتعبي ، أدفئني حضنها وأشجاني فكم كنت أحتاجه .

انتهت زيارتهم سريعا وأحزنني رحيلهم عني .. وعدتُ بمفردي من جديد .

تمر علي أيامي ولا يحمل همّها إلا أنا وحدي .. لم أعد أطلب من زوجي ساعتين نوم لأنه لم يعد متواجدا بالمنزل .

فلبن الأولاد يكلفنا أكثر من طاقتناالمادية بكثير ، لهذا بدأ زوجي يبحث عن مال اضافي ليكفي حاجيات الأولاد .

وما بين تعبي وألمي ذهب من كان يرفع عني وبكلماته يشجعني ، وأصبحت عودته في التاسعة مساءا ليأكل القليل ويذهب للنوم من أجل عمله الصباحي .

ضاقت بي نفسي .. ضعفت روحي .. هلكت جميع قواي
آلمني حالي لم أعد أشعر بالزمن أو المكان ، بمجرد أن أفتح عيني فأنا لا أملك من نفسي شيئا ، أُطعم هذا ، وأحمل هذا ، وأغير لهذا ..
أما ابنتي الكبرى فلم تعد تنزل للحضانة ، وجلوسها طوال اليوم صار على رأسي ، وزوجي يجالسني عند عودته مساءا أنا والأولاد ما يقرب من الساعة ثم يذهب لينام .

الأمر خارج عن إرادته فكم من مرة أحزنني منظره وهو عائد من عمله المسائي وقد غلبت وجهه لمحة حزن وإرهاق .

شعرت به يتمنى أن يعود كما كان عند عودتي بعد الولادة لكن ليس بيده حيلة فالظروف المادية تغلبه بقسوة .

طلبت حماتي من زوجي أن يحضر معه عند زيارتها أحد الأولاد وأضاف والده أنه سيقابله إذا فليحضر معه طفلين ما دام والده سيحمل عنه الطفل الثاني .

وهذا ما تم .. رحل زوجي لزيارة أهله ومعه إثنين من ثلاث

لم أصدق نفسي وعيني .. طفل واحد .. طفل واحد
شعرت بقلبي يرقص على أنغام حلمي الجميل .. أن أنام

أخذت ابنتي الكبرى وأدخلتها غرفتها وأقنعتها بالنوم وعدت إلى وحشي الوحيد على السرير وأطعمته ثم أخذته بحضني وما هي إلا لحظات وقد رحل لعالم الأحلام .

ودتُ لو أصرخ من سعادتي فطفل واحد يعني أنني لن أدخل بدوامة كل ساعة وهي اطعام كل واحد ثم التغيير لكل واحد ثم حمل كل واحد ثم ... ثم ..
حتى تتساقط أذرعي بجانبي وقد هلكت عضلاتها من هذه الدوامة ولا تمر نصف ساعة حتى نعود لبداية الدوامة من جديد .
وضعت رأسي على الوسادة ولم تمر عشر دقائق حتى رن هاتفي
انا :

السلام عليكم ، ازيك يا ماما ؟

أمي :

وعليكم السلام ، الحمد لله ، صاحية ولا نايمة ؟

انا :

يعني .. بحاول أنام

أمي :

طب قومي ياللا بلاش كسل أحنا مسافرين اسكندرية جهزي نفسك ها نيجي ناخدك تروحي تغيري جو بدل مانت محبوسة كدا ما بتشوفيش حتى الشارع

أنا :

ازاي بس ، دا جوزي مش هنا ، عند أهله وواخد معاه عيلين

أمي :

طب براحتك لو غيرتي رأيك كلميني.

أغلقت الهاتف وأنا أندب حظي أن يحدث هذا الأمر اليوم ، عاد الهاتف ليرن من جديد ، وجدته زوجي

أنا :

السلام عليكم ، وصلت عند مامتك ولا لسة ؟

زوجي :
اه وصلت

وفي الخلفية علا صوت حماتي وهي تقول :
مخرجين العيال بهدوم مقطعة .. دي منظر فلنة داخلية ولا دا منظر لبس

ارتفع ضغطي من كلماتها وصرخت بزوجي :
هدوم ايه الي مقطعة .. ايه الي امك بتقولو دا ؟

أخذ زوجي يهدئني بكلماته وليخرجني من الموضوع سئلني لماذا كان هاتفي مشغولا عند اتصاله المرة الأولى ؟

أجبته أنها كات أمي وحكيت له المكالمة ، وصدمتني موافقته
سئلته باستنكار كيف توافق وانا سأرحل بدون طفلين ؟

زوجي :
ما تشغليش بالك ، انا من ساعة ما جيت وامي عمالة تقولي انها تقدر تراعي العيال احسن منك وهي في السن دا ، فانا لو هي عرضت تاني هاقولها خلي الاتنين دول عندك يومين .. بس دا لو هي عرضت غير كدا ما ينفع اضغط عليها تاخدهم .

انا :
خلاص ماشي ابقى عرفني لو في جديد

وبالفعل عرضت حماتي ان نعطيها الفرصة لتراعي الاولاد افضل من مراعاتي لهم وأعطاها زوجي هذه الفرصة بصدر رحب بدون أن يخبرها بأمر سفري في هذا الوقت .

وسافرت يومين إلى الإسكندرية الساحرة وكأن هوائها هو الترياق الذي أعاد لي إحساسي من جديد .. وشعرت بالدماء تتدفق إلى وجنتي وبجسدي تلفه الحرارة .
انشرح صدري وتعالت أغاريده وأنا أدعوا الله أن يكرم زوجي وحماتي ويرزقهم من الخير كله مقابل تيسيرهم لي سفرتي هذه
حينها شعرت برضا الله سبحانه وتعالى عليّ ، فأمسكت الهاتف واتصلت بحماتي لأعبر لها عن جزيل شكري وامتناني .

أنا :
السلام عليكم ، ازيك يا أمي عاملة ايه ؟

حماتي :
الحمد لله اخبار الواد الي معاك ايه والبنت الكبيرة

أنا :
الحمد لله نزلته معايا قدام البحر علشان يشم هوا نضيف ومريم اتبسطت جدا

حماتي :
طب كويس

أنا :

انا اتصلت لأني حبيت أشكرك على انك اخدتي اتنين تراعيهم في اليومين دول أنا كنـــــــــــــــــــ

حماتي وهي تقاطع كلامي :

لا يا ستي الموضوع مش محتاج شكر .. مش المهم انت رايحة تتفسحي ورامية عيالك

أنا :

ليه كدا بس يا امي ؟ واضح اني تعبتك أنا خلاص ها خلي والدي يرجعنا بكرة ان شاء الله .. تؤمريني حاجة ؟

حماتي :

خلي بالك من العيلين الي معاك

وأغلقت الهاتف ، وانتهت فرحتي بكلماتها المؤلمة ، شعرت بجسدي تغلفه البرودة من جديد بعد ما كان الدفء يغشاه .

وانتهت رحلتي وعدت لمترلي وقد أخذت قرارا أن لا أدع أحدا يساعدني في أولادي أبدا فمهما سأفعل لن أُرضي أحد ومهما سأضحي لن يقدرني أحد .

فها هي أقرب الناس لي ترى أنني لا أستحق حتى تغيير هواء ليومين أجدد بهم نشاطي ، وأزيح هما وتعبا وألما سكن في الجسد وبدأ بشق طريقه إلى الروح .

حَزِنَ الفؤادُ حتى صارَ

كسيراً كَئيبا كليلٍ أطالَ

وأدمتْ روحي أليم العِبارةَ

ورضتْ نَفسِي بعد الخسارةَ

*****

رُبَّ نفس حيرتك ، ويد فاجئتك برغم نحولها وضعفها ، استطاعت بقوة دمائها النفع والدفع ، وصنعت السيف للمحارب ، وصاغت الحلى للأميرات ، وغرست العش للطائر ، وهيأت للأحياء جميعهم ما يطعمهم ويسقيهم ، ويدثرهم ويغنيهم ، وفي وقت شدهًا ستضحي بالتأكيد لأجلهم

الجــــــــــزء الســــــــــادس

أتم الأولاد ثلاثة أشهر وكان هذا الأمر يعد انجازا بنظري

حملت لي الأيام جميع آلامها وأعراضها وتخلى عني الجميع أو هكذا خُيل إلي .

بدأت أسئل نفسي كيف سمحت لي أمي الرحيل وأنا لم اتجاوز أسبوعين بعد ولادتي ؟ كيف لم تتمسك بي أكثر وتقنعني بضرورة المكوث وأن المسئولية التي أدَّعي قدرتي عليها لن أستطيع القيام بها وحدي .. كيف ؟

ثم ما لبثت أن طردت الأفكار من رأسي فلا يفرق هذا الأمر كثيرا الآن

وذات صبيحة وجدت الهاتف يرن فأجبت وكانت حماتي :

ازيك ؟

أنا :

الحمد لله ، اخبار حضرتك إيه ؟

حماتي :

كويسة ، أنا جاية دلوقتي تحت البيت جايبة حاجات للولاد ها بعتهالك مع البوابة

أنا :

مش ها تطلعي طيب

حماتي :

لأ ها بعتلك الحاجة وامشي

حمدت الله من قلبي أنها لن تصعد فوضع الشقة لا يسمح أبدا
فقد أخرجت جميع ألحفة وبطاطين المترل وفرشتها بحجمها الكامل في الصالة ثم غطيتها بملائة وصنعت منها سريرا كبيرا للأولاد

وما دفعني لهذا الأمر هو أن التوأم صاروا يتحركون وأخاف أن ينام أحدهم على أخيه أو يقع من على السرير .. وبما أن بيتي لم يعد أحد يزورني به قررت أن أفعل ما أشاء .

مرت نصف ساعة كنت حينها أحضر رضعة الأولاد وسمعت أصوات أقدام البوابة على السلم وفتحت الباب لها وكانت المفاجئة

أنا :
حماتي !

حماتي :
مالك اتخضيتي كدا ؟
ايه مش عاوزاني آجي أشوف العيال !

أنا :
لا أبدا ، بس ما أنا سئلتك ها تطلعي ولا لأ ، قولتي لأ .. طلعتي ليه بقى .

وما ان أنهيت الكلمة حتى اندهشت من نفسي فكيف أقول لها هذا أُحرجت من نفسي ونظرت للأرض ودخلت هي للمنزل ، وأنا أشعر كأن ماءا باردا قد انسكب على رأسي .

حماتي :
الله .. الله .. ايه الي انت عملاه في الشقة دا .. منيمة العيال كدا ليه

لم أجد ما أقوله لها ، وكأن لساني انعقد بمائة عقدة كلما نظرت لوجهها عُقدت عليه واحدة من جديد .

أنا :
كنت بنفض الشقة

ضحكت بيني وبين نفسي على حجتي تلك ، لكن ماذا أقول لامرأة لا ترى بعينها ما كان جليا للناظرين .

وانتهت زيارتها بعد ما أسمعتني من كلمات التنظيم والتنظيف ما فتح الله به عليها ، وقامت بعمل مقارناتها المعتادة بيني وبينها التي تكون هي رابحة جميع اقسامها حتى قسم عدد الاولاد ، مع أنها لم ترزق من الأولاد إلا ثلاث .

رحلت حماتي وتركتني منكسرة من جديد ، وكأنها تشعر بي وقد نسيتُ أفعالها ، فتأتي لي بفعل جديد يهزمني ويهز أركاني بشدة ، لكن اليوم دفعتني كلماتها إلى الهاوية ، ورحلت بعد ما تركتني أسقط بها بدون أي حبال نجاة .

أسندت ظهري على الكرسي بعد ما أنهيت رضعة الأولاد للمرة العشرون منذ الصباح وقد بدأت أيدي ترتعش ونظري يضطرب وكلمات حماتي تترد بإذني .. انت كسوووووولة .

أدمعت عيناي .. ثم التفت تجاه ابنتي الكبرى وسئلتها الدخول لغرفتها لتنال قيلولتها اليومية ورأسي تكاد تنفجر من شدة الصداع الذي ألّم بها .

لكن ابنتي رفضت وطلبت أن أجهز لها طعام فأخرجت لها برجر من الفريزر ووضعته على النار في الزيت كي أطعمها وتنام قليلا فيخف علي بعض الحمل .

اتصلت والدتي بي فطمأنتها علي ولم أحكي لها عن حماتي وبعد ما أغلقت الهاتف ظللت أفكر لماذا لم أخبرها واستغرقت في أفكاري حوالي النصف ساعة لم أفق إلا على صوت ابنتي :

ماما هو البرجر لسة ما استواش ؟

وكانت صدمتي

التفت للمطبخ ورأيت ضوءا أصفر ينبعث منه .. انتفضت من مكاني ورفعت رأسي للسقف وجدته تكسوه سحابة رمادية تخفي لونه عني

صرخت .. وصرخت .. أسرعت للمطبخ وجدت الزيت وقد اشتعل كله بالنار وطالت السقف والحوائط والستائر

علمت أن الأمر خطير ..

حاولت الوصول للموقد كي أغلق الغاز ، وبفضل الله استطعت لكن حينها تحطم زجاج شباك المطبخ من فرط الحرارة ، وصدر عنه صوت مدوي كانفجار صغير ، لكنه افزع الأولاد وصدع صوت صراخهم مجاورا للدخان بالهواء .

عدت إليهم وأنا لا أكاد أرى ، حملت اثنان ووضعتهم بأقصى غرفة في المترل وفتحت شباكها ، ثم حملت الأخير وأمسكت ابنتي الكبرى وقبلتها من رأسها وأنا أهمس لها :
خلي بالك من اخواتك يا مريم
وأغلقت عليهم الباب وعدت للمطبخ وبمجرد عبور بابه لفحتني حرارة النيران

امسكت منشفة للوجه وبللتها من الحمام ومن مكاني بأول المطبخ قذفت بها على الزيت ، وصدرت فرقعة جعلت جمرة نار ترتفع من على الموقد وتستقر أمام قدمي ، تلتهم سجادة المطبخ وتنشر لهيبها بالمكان ، دخلت الحمام ظللت ابحث عن أي ملابس استخدمها ولكن كأنها كلها تخشى النار .

اختفت جميع الملابس من أمامي ، فخلعت عني جلبابي وأغرقته بالماء ، ودخلت المطبخ وقد اشتدت النيران بالمكان وصار خوفي ان تصل لاسطوانة الغاز .. فالأولاد عندها سـ

لم أستطع التخيل ولبست حذاءا بقدمي ، ووصلت للموقد ووجهي يشتعل من السخونة ، وظللت أضع جلبابي على النار ثم أرفعه وأضعه ثانية ثم أرفعه ، حتى انطفئت النيران تماما ، وجلست بوسط المطبخ وجسدي تغطيه الذرات المحترقة ،ثم انتصبت من مكاني حتى وصلت لمكان الشفاط فوجدته وقد انصهرت واجهته ، لكنه اشتغل وبدأ المكان يظهر شيئا فشيئا أمام عيني .

حمدت الله أن مطبخي كان ألوميتال وليس خشب وإلا كان المطبخ بأكمله اشتعل ومهما افعل لم أكن لأسيطر عليه .

هدأت سحابة الدخان أخيرا بالمكان ، وجائتني الصدمة فجميع الحوائط صارت سوداء ،المطبخ تغطى جميعه بسخام أسود ، تحطم زجاج الشباك تماماً واصطبغ السقف بلونا أسود ، احترقت السجادة وفسد الموقد .
وصار اللون الوحيد الذي يغطي جميع مقتنيات المطبخ هو .. الأســــــــــــــــــود

عدت مسرعة إلى غرفة الأولاد وقلبي ينتفض
هل الدخان وصل لهم ؟ .. هل أثر عليهم ؟
هل مريم بخير ؟ .. هل هم بخير ؟

ووصلت لباب الغرفة وارتعشت يدي وأنا أفتح الباب ورأيتهم
وقد جلست أمامهم مريم تلاعبهم بيدها وتدغدغ بطونهم وصوت ضحكاتهم يملأ أذني بشعور واحد .. لقد حافظت عليهم .

حينها فُتح باب الشقة ووجدت زوجي يدخل ويراني بشكلي المحترق
وما أن رأيته حتى شعرت ببعض الطمأنينة ... وغِبت عن الوعي .

أفقت بعدها على برودة الماء فوجدت زوجي وقد حملني الى الحمام وصار يغسل وجهي وأذرعي وهو يناديني في نفس الوقت .

أشرت له بيدي أنني واعية له فأخرجني من الحمام بعد أن جفف رأسي وأجلسني بالصالة .

وما ان لمحت المطبخ حتى عاد لي مشهد النيران بها واقتحامي لها
وبدأت البكاء .. بكاءا لم أستطع السيطرة عليه .. وكأن بركانا من الآلام قد انفجر أخيرا
وتحطمت دفاعاتي وصرت أبكي وأنتحب بشدة وزوجي يهدئني ويسم علي حتى هدأت
وجفت أدمعي وارتاح قلبي وسكن خفقانه لوجوده بجانبي .

قال لي :
من امتى الشجاعة دي ؟

نظرت له باستفهام لكنه أكمل :
انا دخلت لاقيت جلابيتك وهي محروقة من كذا مكان لما لاقيت جسمك مش محروق
عرفت انك قلعتيها تطفي بيها .. ما كنت اعرف انك شجاعة كدا

صمتُ وأنا أنظر إليه وامتلئت عيناي بالدموع وأنا أقول :
مش عارفة إيه الي حصل مجرد اني تخيلت النار دي لو وصلت للعيال ها يجرالهم ايه .. ما اعتقدش اني فكرت في سلامتي بعدها وكنت مستعدة اطفي النار بجسمي لو احتاج الأمر

ضممني لصدره فانتفض جسدي لكنه أخذ يمسح علي ويروضني حتى هدأت وهو يخبرني
أنني بأمان والنار لن تصل لي أبدا وهو موجود
وارتحت لكلماته وهدأت روحي أخيرا .

جاء ثاني يوم وما زال البيت يحمل رائحة الدخان وكان يوم الجمعة وسمعت زوجي يتحدث
بالهاتف وعلا صوته :

_ ما طبعا يا أمي ها تضايق

_ أكيد ما انت قولتلها مش طالعة .. ايه الي طلعك ؟

_ تنوري والله دا بيتك بس هي معذورة وما بتنامش علشان تقعد تمسح الشقة كل يومين زي ما انت عايزة

_ انت جيتي احرجتيها مش عملتيها مفاجأة والدين ما قالش نروح لحد على غفلة

_ حرام دي لوحدها يا ناس قدروها شوية دا حتى أنا ما بقتش بساعادها

_ يا أمي الي زي مراتي دي وفي وضعها كان زمانها اتجننت

_ ماشي أنا ها جيلك النهاردة ما دام وحشوك وما لحقتيش تشبعي منهم امبارح .

انهى المكالمة ووجدني أقف أمامه سئلته لماذا احتد بكلامه مع والدته لكنه اجاب بانه كان يحاول أن يبرر لها كلمتي لها .. " طلعتي ليه "

استأت من ذكر الأمر ثانية ثم وجدته يقول :
جهزي الأولاد ها وديهم لامي يقعدوا معاها طول اليوم

استغربت كلماته لكنه اضاف ان أخوه سيحضر بسيارته ليحمل معه الأولاد ويذهب لها بطفلين لكنه سيفاجئها ويذهب لها بالأربعة

واقترب مني وقبلني على رأسي وقال :
أنا هاكون هناك وأخويا وأمي وأختي وابويا ، خمس أفراد ها يراعوا أربع أولاد وانت بقى تدخلي تنامي وهاصحيك لما ارجع

كانت مفاجئة .. خطته صدمتني بكل المعاني .. سأجلس لوحدي وسأنــــــــــــــــــــــــــــــام .

نزلت دموعي كانهيار جليدي وكأن حلما أخيرا قد تحقق .. تمنيت لو انزل إلى اقدامه فأقبلها وأشكره من كل قلبي على فعلته هذه لكنه لم يمهلني وأسرع بالدخول إلى الاولاد ونادابي لنسرع بالتغيير لهم

نزلوا جميعا الساعة العاشرة صباحا ودخلت إلى السرير ونمت

أول ما فتحت عيناي كانت العاشرة مساءا ولم يعد أحد بعد و..

سقطت إلى النوم من جديد ولم أشعر إلا بباب الشقة يُفتح ويدخل زوجي حاملا ثلاثتهم على يديه وبجانبه مريم تتثائب فنظرت إلى هاتفي ووجدتها الواحدة بعد منتصف الليل لم أصدق عيني .. فقد نمت أخيرا أكثر من ساعتين .. نمت
< خمس عشرة ساعة> .

*****

كنت أغبط نفسي على التجلد والتصبر ، وأحسبني قد ملكت من أمور نفسي ما يحكمها وينصبها في كل رزء مهما جل شأنه وعظم وقعه ، فلما أصيبت أرواحي المقسمة في هذه الدنيا ، علمت أن من الرزايا ما لا يطاق تجرعه ولا يستطاع احتماله ، وظننت أن الحزن لا يكون إلا في سويداء القلب ، وأنه بعيد الغور عن جوارحي وانفعالاتي لكني أفلتُ التحكم حينما سكنني الخوف

الجـــــــزء الســـــــــابع

أصبحت الصالة كلها تعد سريرا لثلاثتهم فكلما أراد أحدنا السير يجب أن ينظر تحت أقدامه فربما يكون أحدهم قد زحف حتى باب الشقة .

كبروا بفضل الله وأتموا الشهر الخامس وكلما بانت ملامحهم واشتد لهم ضلعا واكتسى لهم لحما .. كلما ظهر بي التعب وازداد ضعفي يوما بعد يوم .

رزقني الله سبحانه وتعالى بأغرب الحموات فكل حماة تسعد بخلفة الأولاد لأنهم هم من سيحملون اسم العائلة لكن حماتي ..

لا يظهر لها حبا ولا يتحرك لها طرفا ، إلا للبنات فهم عشقها لهذا كان نصيب التوأم معها مختلفا ، فهم ولدان وبنت ، وكأن حماتي تناست أن هناك ولدان في الأمر ، لكن صار شغلها الشاغل هي البنت فقط .

وفي نهاية شهرهم الخامس تحدد موعد زواج اختي وجاء أخي ليأخذني لأقضي يومين ببيت والدي قبل الفرح لكن جائني القرار.

حماتي :

مستحيل اسمح ان الولاد كلهم يظهروا في الفرح .. حرام عليكم ها ياخدولهم عين

ووافق كلماتها زوجي وأيضا وافق هواً في نفسي حتى اتفرغ لأمر الفرح بدون مسؤليات جمّة ورائي .

فأرسلت لها اثنين ، طلبت حماتي أن تكون بينهم الفتاة ، وقضوا معها يومان حتى انتهى الفرح ، عاد إلي أطفالي من جديد وعدت لمترلي أراعي الأربعة وحدي .

لكن ما لم أحسب حسابه ظهر في الأفق .

فقد أعلنت حماتي أنها ستأخذ البنت الصغيرة لترعاها هي وتزيل عني حملا قد أثقلني وكأنها لم تدري أن معي توأم ثلاثي إلا الآن .

لكن ما غلبني ، هو أنها عند مكوث الإثنين معها ، تعلقت بالبنت أكثر وأكثر ، وخُيل إليها أنني سأهبُّ فرحةً بهذا الكرم الواسع منها .

لكني رفضت .. ورفضت .. وبشدة .

ولم أجد من يؤازرني حتى زوجي رأى أنها فكرة جيدة لأزيح عني تعبا وألما وكأن غياب طفلا سيؤثر كثيرا .

اعترضت على الجميع وسئلت ..

بأي حق تأخذ مني طفلتي !
بأي حق يكون لها هي الحق برعايتها !
ألا أجد عاقلا يفهمني !
ألا أجد أحدا ذو مشاعر يقدر ما بقلبي !

سئلتها بالله عليك أماه كيف تفصلي من جمعهم الله معا بمكان واحد ؟

لكن ويا للمفاجأة .. فهي تفعل هذا من أجلي
لترفع عني هذا الحمل الثقيل الذي أثقلني الليالي وأسهرني بالشهور .
بعد التفكيروالإصرار والإلحاح من الجميع وكأنهم بإقناعي بإرسالها لحماتي يزيلون عن أكتافهم هم الحمل وأن هذا الأمر سيريحهم فيقنعوا أنفسهم أنهم ليسوا ملزمين بمساعدتي .. المساعدة التي لم يقدموها حين احتجتها بحق .

ففكرت كثيرا .. ثم وافقت
واتصلت بحماتي لأخبرها بموافقتي على مبيت البنت عندها خميس وجمعة فقط من كل أسبوع .

وأنهينا المكالمة ، وأنا أقاسي من الألم النفسي ما لا يعلم به إلا الله ، فهذا خطئي وأنا الآن أتحمل تبعاته .

لم يجب علي أن أرسل لها الأولاد أبداً ليبيتوا وقت فرح أختي ، أناالمخطئة .

وبدأت الأسابيع تمر وكل يوم خميس تذهب ابنتي الصغرى مع ابيها وتعود الجمعة مع جدها .

ومرت الأيام وتغيرت تصرفاتهم ، انتفضتُ في يوم من نومي على احساس ألهب عقلي .. أيدي تتحسسني وتنهشني ..

حاولتُ التملص والهرب لا مفر ولا مقر ، اختلطت انفاسي بانفاس من عند رأسي وهو يقترب من وجهي ويتحسس خدّي وأنفي ، حاولت فتح عيني لكن شعور من الارهاق والتعب قد أنهكني

صرخت بداخلي .. ابعدوا عني

لكن الصوت لم يتعدى حدود عقلي وفكري .

في لحظة سئلت نفسي .. هل أتمنى الموت الآن أم أنتظر قليلا ؟

وصدع الرفض في رأسي معلنا ان هذا التمني سيكون دليلا على الاستسلام والهزيمة .

عدتُ لواقعي وحاولت تبين الأحداث من جديد فشعرت بالايدي .. اثنتان عند رأسي .. واثنتان عند خصري .. واثنتان عند قدمي

وبمعادلة سريعة .. ثلاث أفراد .

فتحتُ عيناي بعد توسلي لها لتنفتح وتدع عنها سلطان النوم وآثامه فالنوم لم يعد مسموحا لي بعد الآن .

ووقعت عيناي أول ما وقعت على من تخالطت أنفاسي معه وبمجرد أن رأى عيناي ابتسم بانتصار فقد وصل إلى ما أراد وانهزمت أمام جبروته وقوته وخرجت من عالمي وعدت لعالمه الذي يكون هو فيه السيد وانا خادمته .

وما هي الا لحظات وقد اصبحت الأيدي التي كانت في الأسفل مع أخواتها في الأعلى ونظر ثلاثتهم إلي بنظرة البراءة وأيديهم تضربني بكل طفولة وقسوة موضحين نيتهم في السهر اليوم ككل يوم غير مستعدين لتغير روتينهم لمن هي مثلي .. أمهم

فها هم قد أكمل ثلاثتهم الستة أشهر بفضل الله وكان هذا يعد انتصارا أمام الجميع وأمام نفسي .

فقد كبروا ولم يعد يميزهم أحد بأنهم ناقصي نوم .. وشهدت لي طبيبتهم بأنني أحسنت رعايتهم ...حتى جاء ذالك اليوم .

ظللت لمدة يومين كاملين لا أذوق طعم النوم ولو لثلث ساعة لكني كنت قد اعتدت على هذا العذاب الآن .

فالأولاد لم يعد يبقى شئ بمعدهم .. حتى بدون أكل يفرغوا ما ببطونهم حتى شعرت بأرواحهم تخرج مع كل نفضة وشهقة لهم .

تألمت لحالهم فهم يبكون من الجوع وبمجرد أن يلمس اللبن أفواههم يفرغوا كل شئ .

وما يؤلم بحق هو رؤيتهم وهم يزحفون تجاه رضعاتهم ويمسكونها بأيديهم وتشعر بالسعادة ترتسم على وجوههم ، فهم حقاً جوعى ،
ثم لا تلبث تلك السعادة أن تختفي ويظهر محلها الألم وهم يشهقون بقوة .

في يومين اختفت جميع ملامح نموهم وسكنت مكانها ملامح الضعف والإرهاق والتعب .

يئس الأطباء معهم ويئست أنا من كثرة علاجهم الذي لا يسمن ولا يغني في مرضهم .

وفي اليوم الثالث أسرعت إلى دورة المياه لأغسل عني آثار لبنهم الذي كان مصيره في النهاية على ملابسي .

خرجت ووجدت زوجي وقد حمل ثلاثتهم على يديه ، وجلس بهم وأخذ يقرأ عليهم القرآن ، أخيرا هدأ صوتهم فهم لهم يومان لم يهدأ لهم حسا ، فصراخهم يعلو مع كل دقيقة حتى كدت أجن وأنا لا أدري هل السبب قلة النوم أم الصراخ أم ماذا ؟

سمح لي زوجي أن ارتاح ساعة ويرعاهم هو في هذا الوقت
وأسرعت إلى السرير وأنا أكحل عيني برؤيتهم مرة أخيرة قبل النوم

ثم استيقظت على قطرات ماء تسقط على وجهي
فتحت عيناي وكان زوجي ودموع عينه تبلل وجهي

انتفضت من مكاني وأسرعت لخارج الغرفة ووجدت الأولاد وقد سكنوا تماما عن الحركة لكن أعينهم مفتوحة .

صرخت به :
ايه الي حصل

زوجي :
العيال بيضيعوا مننا .. انا فضلت اقرى عليهم لحد ما ناموا لكن
فجأة صحيوا وهما بيرجّعوا من غير ما يكونوا كلو حتى

الولاد روحهم كانت بتطلع .. انا مش عارف نروح بيهم فين دلوقتي الساعة اربعة الفجرهانروح فين ؟ .. فين ؟

وتهاوى على اقرب كرسي له واضعا رأسه بين راحتيه .
صُدمت من الأمر فزوجي يشعر بقلة الحيلة أمام مرضهم والأولاد كأنهم يلفظون آخر أنفاسهم

أسرعت للهاتف واتصلت بوالدي وما هي الا ثلث ساعة وكان والدي ووالدتي تحت المترل بسيارتهم وذهبنا جميعا لأقرب مشفى للأطفال

وبمجرد أن رآهم الطبيب أعلن أنه يجب حجزهم بالمشفى فقد أُصيب ثلاثتهم بترلة معوية لكن جسدهم أصيب بالجفاف وأن لم نُسرع فســـــــــــــ..

تم حجز الأولاد وأنا غير مصدقة لما أسمع .. نزلة معوية !! كيف ؟

وبمجرد حجزهم تم حضور الممرضون لتُعلق لهم المحاليل وكان هنا الألم كل الألم فمن كثرة الجفاف لم تعد تظهر لهم أوردة .

يئس الممرضون معهم وتألم ثلاثتهم بكثرة .. فكل واحد منهم قد دخلت الحقنة ذراعه أكثر من مرة ثم تخرج ثانية فلم تصل المكان المحدد .. والأولاد يصرخون وأنا قلبي يكاد يهب من مكانه وشفتاي ترتعش ، فالأولاد يتألمون ووجهي يختفي وراء دمعاتي لكن جسدي يهتز من كثرة البكاء .

وما زال ثلاثتهم يصرخون من الألم والحقن تتدخل وتخرج ويصرخون .. والحقن تتنقل من أيديهم لأذرعهم ولا وجود للأوردة

حينها صرخت بأعلى صوتي :

كفاااااااية

حرام عليكم .. والله ما واحد فيكم مادد ايديه تاني على العيال .. هاتولي دكتور..

وظللت أصرخ بهم وما هي إلا لحظات وقد أتى الطبيب وهدأني وزوجي يتابعني بنظره وكأنه يعاتبني لكن لم ينطق بشئ فحاله لا يختلف كثيرا عني لكنه لم يفقد أعصابه مثلي .

وكيف لا أفقد أعصابي ومن تألمت لأجلهم يتألمون الآن ولا يملكون إلا البكاء ليعبر عن مقدار ما يعانوه

تمنيت لو أُحقن أنا ألف مرة ولا يشاكّ أحدٌ منهم .

جاء الطبيب وعاني كما عانى الممرضون لكن بالنهاية يسر الله الأمر لكن بعد ما تم توصيل المحلول عن طريق القدم .

وظل الوالد والوالدة يهدئوني ويواسوني وأن أرى ثلاثتهم وقد افتُرش سرير لكل منهم وناموا أخيرا بعد ما أدماهم البكاء .

وحضرت من كنت أخشاها ، وأسرعت بالدخول علينا ، أشرت لها بيدي على سرير ابنتي ، فأنا أعلم انها لن تبحث عن سلام الآن ، فكل ما ستريده هو رؤيتها .

وهالني ما رأيت فقد ارتمت برأسها عند قدم ابنتي ودموع عينها لا تنضب .

أشرت لزوجي فانتبه لحالها وأسرع لها وهدأها وهو يطمئنها على حال البنت وأخبرها كما قال له الطبيب أنه ميكروب في الجو في هذه الفترة من السنة يصيب هذا العمر بصفة خاصة .

وأسرعت إليها وأنا أربت على ظهرها وقد تبين لقلبي صدق حبها لابنتي وألمها من أجلها .

ولكن

التفتت حماتي إلي وهي تصرخ :

انتِ السب .. انت الي عيتيها .. انـــــــــــ

لكن هنا أوقفها زوجي :

ايه الي بتقوليه دا يا أمي .. في واحدة ها تعيي بنتها ..

حماتي :

لما يكتبولها خروج انا هاخدها على عندي مش هاعرف اطمن عليها وهي بعيد

أنا وقد طفح الكيل بي :

وهو انا الي هاعرف اطمن عليها وهي بعيد .. ياريت تحطي في بالك الها بنتي قبل ما تكون حفيدتك

ورحلت عن مكانها وأنا ألمح نظرات غضب من زوجي على أسلوبي مع والدته .. فهو بالفعل يرد لأجلي لكني لم أعد أحتمل .

رحلت عن مكانها وأنا أداري دموع عيني التي تحاول وبشدة ان تشق طريقها للخارج .

عدت بعد ذالك ووجدتها وقد توجهت لابنتي وأخذت تحدثها وتلاعبها ودموع عينها لم تتوقف .. تعجبت لأمرها ولعظيم حبها لابنتي فكأن ابنتي قد تملكت قلبها وسكنته بأكمله

وقضينا يوما كاملا بالمشفى حتى توقف الأولاد عن التقئ وعدت لمنزلي لكن قبل ذهابي للمنزل التفتُ لحماتي وأخبرتها بأني أوافق على ذهاب البنت معها .

ورأيت وجهها يبتسم بوجهي ولأول مرة منذ فترة طويلة وهي تخبرني أنها ستراعيها كإبنتها تماما ولن تغفل عنها .
وأخبرتها أنني سأتصل يوميا لأطمئن عليها ، حينها سلمت علي حماتي وودعتني وذهبت هي وابنتي ونظرت لزوجي وهو يشعر بالرضى من موقفي .

ووجدت والدتي تصِّر على أخذي لمنزل والدي لتراعي الأولاد معي فحالهم لا يسمح بمكوثي معهم بمفردي .

وانطلقت سيارة والدي وأنا أشعر ببعض الراحة أخيرا فهناك من سيرعى معى الأولاد في هذا الوقت العصيب .

ورفعت رأسي إلى السماء وعيني تكاد تنطبق من أثر سيطرة النوم عليها وردت .

اللهم لك الحمد أن رزقتني من يُعين .. فإليك عظيم الشكر يا مُعين .

*****

ما أضيق العيش في هذه الحياة لولا فسحة الأمل ، فمن لي بهذا العيش من عيش مثلي فيه ، ومن لي ليشعر بآلامي غير ألم يمر فيه ، فما دام ليس لحالي من تغيير ، رضيت نفسي بنفسي سبيلا ، وهدأت روحي وما وجدت عن عيشي بديلا ، فتساوى لدي شحمي ولحمي ، وسعدي ونحسي ، ونعيمي وبؤسي ، حتى تغلبني رحمة ربي ، وتأتيني فسحة الأمل

الجـــــــــــــزء الثـــــــــــــامن

كان لسماحي بذهاب ابنتي يومين وقت مرضها إلى حماتي عظيم الأثر على نفسها ، فتغيرت معاملتها لي ، بل صار من المعتاد أن تتصل يوميا تتطمئن على حالي وحال الأولاد ، ودائما يذكرني زوجي بأنها لم تغفل إيثاري لها على نفسي وثقتها بها في رعايتها ابنتي
حمدت الله أن هذا الأمر انتهى وربما ينصلح الحال بيننا مع الوقت .

وأتم الأولاد عشر أشهر وكان احتفالا وانتصارا أمام الجميع وتمكينا من الله وإعانة ورزق في كل شئ .

لكن لا يلبث القمر أن يكتمل حتى يبدأ بالنقصان وفي حالتي كان هذا النقصان هو أحد الصبيان فقد بانت عليه أعراض مرض يُعد خطيرا في زمننا .

لم تكن تأتيني زيارات كثيرة وبين كل فترة وفترة تمر أُمي ومعها أخواتي يساعدوني بأمر الشقة ويقضون يومهم معي ويرحلون .

لكن كل مرة كانت أمي تحمل واحد من الصبيان " روْح " تنبهني لتخشب جسده بين يديها وكأنه لو ألان ذراعه أو قدمه ستنكسر .

بدأت بمتابعة روْح بصفة خاصة وحاولت دائما حمله والتحدث معه وملاعبته ، لكن فاق الأمر حدوده حينما وجدته لا ينظر بعين أحد مباشرة وان جلس بمفرده ظل يهز رأسه يمينا ويسارا بحدة .

رأيته وانصدم قلبي فأنا أعرف ما به أو أشك فيه ، حدثت حماتي بالأمر ، فأكدت علي أن لا أغفل عنه وأحاول تنبيهه وربطه بأخوته وإن تطور الأمر يجب عرضه على طبيب حالات .. " التوحد "

صار الأمر أشبه بالتعذيب بالنسبة إلي فطوال الوقت أُحدثه وأناظره وأحرك رأسه باتجاهي وأتكلم معه ، لا أدعه بعزلته ولا أسمح له بتحركات رأسه وضربات يده .

وكلما رأيته انفطر قلبي ألما عليه وحزنا لحاله ، حتى فكرت بيوم انني يجب أن أحاول مرة أخيرة وإن لم يستجب لي سأعرضه على الطبيب
وكان ما أوقفني كل ذالك الوقت هو خوفي أن أذهب إلى الطبيب فيتحول الأمر لواقع أعيشه ويعيش به طفلي الصغير .

وتحولت الليالي والأيام لدوريات عمل أضع المواعيد وأحدد ما أفعل ، حتى خارت قواي وانتهى حبل الأمل بنظري ويئس قلبي من محاولة تغييره ، حملته بين يدي ووضعته بجانب إخوته وأنا أندب حالي وأحوقل من أثر ما ألم بي وبطفلي .

وبكيت من .. الخوف
خوف من مستقبل مجهول بالنسبة إلي وإليه ، رفعت رأسي إلى السماء ولم أقل إلا كلمة واحدة ... يارب .

والتفت بعيني لثلاثتهم ووجدت الولدين وقد التصقا ببعضهما وتحركت ايديهم بعشوائية نتج عنها بكاء واحد ، وضحك الآخر وكان ما فاجئني هو ضحك " روْح " الذي أرهق ليلي وأتعب نهاري أما أخوه ريْحان فقد علا صراخه .

أسرعت إليه ووجهتم بوجه بعض فنظرا لبعضهما .

صرخت بصوت عالي فنظر الإثنان إلي بوقت واحد وتلاقت أعيني مع أعين روْح وابتسم

.

فأخذته بحضني وقد اغرورقت عيناي بالدموع فكيف لم ألحظ هذا ؟

كيف لم أنتبه أنني أخذته من إخوته وأبعدته عنهم .. كيف ؟

وظللت أتابع ثلاثتهم وهم نائمون بجانب بعض وأيديهم تضرب الهواء تارة وبعضهم تارة

مما يدعوا المرء للتحير والتساؤل

هل هناك رابطة خاصة بين ثلاثتهم؟

أم أن الأمر أبعد من ذالك ؟

أتمّ الأولاد الشهر الحادي عشر وطال بُعدي عن والدتي ومنزل والدي وبالأخص عن نصفي الثاني وتوأمي .. ليلى .

ومر حوالي الشهرين لم أراهم أويروني وتدهور حالي كثيرا فقد صار الأولاد يتحركون بكل مكان وطوال الوقت أذهب من هذا لهذا ثم لهذه .

حتى انتفضت في أحد الأيام على ألم حاد برأسي لا أدري له سبباً

فقلة النوم اعتدت عليها .. لماذا الآن رأسي تؤلمني هكذا ؟

تطور الأمر وصارت الرؤية مزدوجة والألوان متداخلة ، لم أعد أستطيع الوقوف على قدمي ، كلما نظرت بالمرآة وجدت تجمعات دموية قد خطت لها موقعا في بياض عيني ، ضعفت رؤيتي أكثر وأكثر .

ظللت صابرة على وضعي لكن الألم ازداد برأسي ..لم أعد أحتمل أكثر من ذالك .

اتصلت بزوجي بالعمل وهو بدوره اتصل بوالدتي .. لكنها لم ترد
مرة واثنان وثلاث .. حتى يئس من الاتصال واعتذر من عمله وحضر للمترل .

واتصلت والدتي أخيراً تعتذر لأن الموبايل كان بعيدا عنها .. و
وأخبرها زوجي عن حالي وأنه سيصحبني للطبيب لكن لا يدري ماذا يفعل بالأولاد وأين يضعهم ؟

وهنا كانت المفاجأة
فقد رأيته ينتصب من جلسته وهو يستنكر ما تقوله له بالهاتف وبعد ما أنهى المكالمة ، نظر إلي بعيون حائرة وهو لا يدري ما يقول ..

ثم قال :
ليلى في المستشفى

انتفضت من مكاني ومادت الأرض تحت قدمي من أثر وقفتي ، لكنه أسندني وقال :
ضغطها ارتفع وودوها للدكتور .. هي تعبانة من الصبح ودلوقتي واخدة الدوا بانتظار ان مفعوله يظهر عليها .

شعرت بكل كلمة تصدر من زوجي كسهام تنشق بصدري فأختي وصديقتي وحبيبتي مريضة ولا أستطيع أن أذهب لأراها .

أخذ زوجي يطمئني عليها ، ثم قال هيا بنا إلى الطبيب ، وجهزنا الأولاد واستأجرنا تاكسي ودخلنا على الطبيب .

وجلست أمامه وسئلني :
بتشتكي من إيه ؟

صمت قليلا وأنا أنظر لزوجي وأشعر بقلة الحيلة ثم قلت :
ولا حاجة

تحير الطبيب مني لكني استكملت :
أنا كنت تعبانة جدا النهاردة ومش شايفة ومصدعة وعيوني حمرا لكن من حوالي عشر دقائق كل الحاجات دي اختفت .. فانا مش عارفة ايه الي حصل .

سكت الطبيب قليلا ثم قال :
أعراض حضرتك دي تخص اعراض ارتفاع الضغط .. فهل حضرتك ضغطك من النوع الي بيرتفع ؟

فأجبته بسرعة :
لأ، أول مرة لكني عندي أختـــــــــــــــــ..

وألجمتني الكلمة بمكاني وتحجرت عيناي .. هل من المعقول !

سئلني الطبيب :
حضرتك سكتي ليه ؟

فأشرت برأسي له أنني بخير، ثم وجهت كلامي لزوجي أننا يجب أن نرحل .

وخرجت من عيادة الطبيب ورأسي تكاد تنفجر من التفكير
ثم شرحت كل شئ لزوجي عند عودتي إلى المترل
وكتمنا الأمر بيننا ولم نخبر أحدا فهو مستحيل عموما .

وبعد مرور إسبوع وفي أثناء تغيير ملابس " روْح _ ريْحان _ ريتال " شعرت بألم عند سُرتي
تذكرت حينها الفتئ الذي جائني في أثناء حمل الأولاد .. تحيرت لماذا عاد الآن ؟

حاولت العثور على رقم طبيتي لكنه اختفى من الهاتف
اتصلت بوالدتي :
ماما رقم الدكتورة بتاعتي معاك ؟

والدتي :
ايوة حبيبتي بس اتصلي كمان شوية لحسن ليلى تعبانة دلوقتي

وكانت تلك صدمتي

سئلتها وأنا أمسك بطني من الألم بسبب الفتئ :
ماما ضروري تعرفيني هي حاسة بإيه ؟

والدتي :
بطنها وجعاها جدا من عند سُرتها ممكن تكون اتخبطت ولا حاجة

هنا صرخت بأمي والألم يزيد علي :
اديني نمرة الدكتور بسرعة لان ليلى تعبانة بسببي .

سكتت أمي ولم ترد كأنها تستوعب ما أقول فأعدت الكلام لها ثانية :
يا ماما اديني النمرة وبعدين افهمك .

اخذت الرقم منها وحدثت طبيبتي واتصلت بالصيدلية وأرسلوا إلي حقنة المسكن .
وبعد مرور نصف ساعة توقف الألم أخيرا واستطعت التنفس من جديد .

اتصلت بوالدتي فأجابتني ليلى وسئلتها بسرعة كيف تشعر فحمدت الله وقالت :
التعب زي ما جه فجأة اختفى فجأة مش عارفة حتى من إيه !

وهنا تنفست بقوة وقلت لها :
اسمعي بقى وجهة نظري

وحدثتها بكل ما بخاطري وأنا استند لوقائع حدثت بيننا لم نلتفت لها أكبرها غيابها عن الوعي كلما أخذت أنا دواء مثبت الحمل في أثناء حملي .. فمن المعروف أنه يسرع نبضات القلب .. وغير هذا الموقف وغيره .

مما تحير عقلانا فيه وظللنا نتحدث ونتحدث حتى أنهت كلامها لي بسؤال واحد ألجمني وأسكتني .. فقد قالت :

تفتكري توأمك الثلاثي ها يطلعوا زينا .. كل ما يغيبوا عن بعض يعيوا ؟

وسكتُ طويلا وأنا أنظر إليهم وقد نام ثلاثتهم بجانب بعض ويد كل منهم تلمس يد الآخر

وعقلي يردد نفس السؤال

هل سيكونوا مثلي أنا وليلى ؟

*****

الحسد من الأمراض القلبية الفاتكة بالحاسد قبل المحسود ، وبكل حسدة تصدر من الحاسد تصيبه أثرها نقمة وللمحسود منحة ، فإن صبر عليها الثاني ظفر وأن ظل عليها الأول كفر ، وما الكفر هنا إلا كفر بتقاسيم الله وتوزيع الأنصبة بين عباده ،فإن لم يتغير الحاسد ويغير بحياته ، فحسبه أنه ملأ فراغ عمره بشؤن غيره وظل بها بين الغيظ الفاتك ، والكمد القاتل

الجـــــــــــزء التـــــــــــاسع

أكمل الأولاد بفضل الله عامهم الأول ، ولأول مرة أشعر بالفخر من جراء عملي وجهدي
.

نظرت إليهم ولم أجد وجها حزينا او ألما يسيطر عليهم ، ارتاح قلبي لرؤيتهم وهدأت روحي لمشهد ابتسامتهم .

أما مشيتهم فتلك هي الأضحوكة بعينها
فثلاثتهم يريدون المشي بوقت واحد وباتجاه واحد
أما ما يجذبهم فهو .. بالتأكيد أمر واحد .. الطعام .

سعدت لرؤية تقدمهم وشجاعتهم على المشي واصرارهم على المحاولة لكن ما كان يعجزني هو امساك ايديهم .. فمن أين لي بيد ثالثة لتمسك ثالثهم ؟ .

شهرا مباركا من عند الله سبحانه وتعالى .. كأن الرضا قد أُرسل إلينا برسالة جميلة الرسم بديعة المضمون يصدر منها صوت الضحكات والهمهمات الغير مفهومة لكن البهجة هي ما تسيطر على الأجواء .

ومشى الأولاد أول خطواتهم بمفردهم ، واهتز البيت من صوت صراخي وضحكي عليهم
حتى تعالت صرخات روْح وغطت صوت ضحكي
وألجمني صوته فالتفتُ إليه وقلبي ينقبض من أثر صرخته .

ووجدت أمامي وجهاً لم أراه قبلاً أو أعرفه يوما ، وجهاً مغطى بالدماء لا يظهر منه لمحة تنبئ عن صاحبه .

لكني أعرفه أنه ابني .. روْح .

صرخت بأعلى صوتي وأنا أُقبل عليه وأُمسك وجهه بين يدي وأُحركه يمينا ويسارا .

لا أدري من أين مصدر الدماء لكن ما أعلمه بحق أن الدماء تغطي وجه ابني وجسده وتصنع بركة صغيرة على الأرض تكاد تُجسد ملامح الحياة في لونها .

أخذته بين أحضاني وظللت أمسح وجهه بملابسي ويدي لكن الدم مازال يتدفق .

ناديت بأعلى صوتي على زوجي فاستيقظ من نومه وهرع إليّ ، ورأيت الرعب وهو يرتسم على وجهه ويصرخ بي .. ماذا حدث ؟ .

وأنا لا أرد وأواصل مسح الدماء عنه وصرخات باقي الأولاد تعلو بالمكان .

حتى رأيت مصدر الدماء وقد كان جرحا غائرا في منتصف جبهته بعرض سنتيمتران .

صُدمت وأنا لا أدري كيف يُصاب بمثل هذا الجرح ، انهمرت دمعاتي وأنا أنظر لزوجي الذي كان قد ملابسه، واسرع بأخذ روْح من بين يدي وغادر المنزل .

ظللت قابعة بمكاني لا أتحرك وعيناي مثبتة على آثار دماء روْح بالأرض ، مدتُ يدي بارتعاش للدماء ولطختها به ومن أثر دفئها صرخت .. وصرخت .

كيف أسمح بحدوث هذا ؟ ... كيف أغفل عنه ؟ .

حينها رأيت بقعة دماء صغيرة على الحائط وعندما اقتربت تفاجئت أنها على وزرة السيراميك بالحائط وعلمت حينها انه لا بد أن يكون قد وقع عليها .

حاولت التماسك وأنا أنظر لباقي الأولاد وكأنهم يدرون بأمر أخوهم فنظرات حزن قد غلفت ملامحهم وأعينهم تراقب آثار الدماء
أسرعت إلى الدماء ومسحتها وأنا أدعوا الله أن يصرف عن روْح الأذى ويعيده سالما .

وظللت أمسح وأمسح وأزلت آثار الدماء عن الأرض لكني كلما نظرت إلى الأرض رأيت دماءه من جديد فأعيد مسحها وأنا أبلله في نفس الوقت بدموع عيني ولساني يردد .. يارب .. يارب .

وفُتح الباب ودخل زوجي وهو يحمل روْح وجبهته بأكملها مغطاة بالضمادات البيضاء وخط من الدماء ما زال يشق طريقه على وجه ابني يؤلمني كسيف يخترق جسدي .

هويت في مكاني على اقرب مقعد مني وأنا لا أصدق أنه قد عاد إلي من جديد .. سئلت زوجي هل الأمر خطير ؟ .

زوجي :

لا والحمد لله الدكتور قال ان الولد صغير والجروح بتلم بسرعة وبالنسبة للدم الي فقده نشربه عصير تفاح ها يعوض معاه بس لازم نداوم على العلاج دا علشان الجرح يلتئم على طول .

نظرت إلى الأرض في خجل منه ومن نظراته إلي وأنا أدري أنه لن يسامحني على تقصيري مع ابني لكن .
اه لو يدري أنني لم أقصر معهم ولم أغفل عنهم لكنه النصيب والقدر بلحظة تلتفت العين بعيدا ويندم المرء بعدها أشد الندم .

لكنه أتى إلي وهو يقول :
الموضوع هيّن خلاص ما تضايقيش نفسك كدا .. احمدي ربنا وما تديش الموضوع أكبر من حجمه .. الحمد لله الأمور عدت على خير .

نظرت إليه بامتنان وعيناي تراقب روْح الذي تثاقلت عيناه بالنوم من أثر البكاء وما هي إلا لحظات حتى استغرق به .

وسهرت باقي ليلي مع من استيقظ من الأولاد حتى تعبوا جميعا وسقطوا بعالم الأحلام .

وفي الصباح تمنيت لو أن كل ما حدث كان حلما لكن ضمادة روْح أيقظتني من عالم الأماني وأرجعتني لأرض الواقع وأنا أرى ضمادته وقد غطت جبهته وهو يحاول باستماتة أن يزيحها عن رأسه .

انتبهت لصوت تحطم كوبا زجاجيا بالمكان وقد كانت مريم هي السبب في ذالك .

أبعدت الجميع وأخذت احتياطي وأغلقت عليهم باب غرفتهم الأربعة معا .. لملمت الزجاج ومسحت الأرض وتأكدت من خلو المكان من أي أثر له ، وذهبت لغرفة الأولاد .

فتحتها وأول ما وقعت عيني كانت على الدماء التي رسمت خطا بالأرض .. التفت بسرعة لروْح .. لكن ضمادته بيضاء كما هي
إذا فليس هذا جرحه .

بدر إلى ذهني أول ما بدر هو ريْحان ولا أدري لماذا ؟
نظرت إليه وأنا أشهق بقوة ورأيت يده وهي مغطاة بالدماء ويبكي هو بصمت .

أسرعت إليه وأخذته بين أضلعي وأنا أجفف دماء يده ورأيت جرحا بيده .. كيف حدث ؟
لقد أخذت احتياطي معهم جيدا .. اذا كيف حدث هذا ؟

اقتربت من الانهيار وانا أنظر لـــــ روْح وريْحان وأصرخ بهم :
أنا ما سهيتش عنكم والله .. والله واخدة بالي منكم كويس .. ازاي يحصل لكم كدا ؟ .

نظرت لثالثتهم وأنا أخشى عليها .. كدت أجن وأنا اسئل نفسي هل حان دورها ؟ .

تعالت صرخاتها .. انتفضت من مكاني وأسرعت إليها وأن اسئلها :
مالك .. حاسة بإيه ؟

وكأنها ستجيبني .. فتشت وجهها ويدها وقدمها لم أجد بها شيئا .. ضممتها لصدري وأنا أمسح على رأسها وأهدئها وأمسح بيدي على ظهرها حتى وصلت يدي لوسطها وتعالت صرخاتها ثانية .

رفعت عنها ملابسها ونظرت لوسطها وكانت تلك فزعتي التي لم أفزعها قبلا .

فقد كان وسطها يحمل جلدا محترقا بلون بني حاولت الضغط عليه لكن وجدت الدماء طريقها إلى سطح جسدها وظهرت قطرات دماء هنا وهناك وأنا أكاد أفقد عقلي ... ماذا يحدث لأطفالي ؟ .

حملتها بين يدي وأحضرت مرطب الحروق والالتهابات ودلكتها به ومرت الدقائق كساعات حتى وجدت ثلاثتهم وقد هدأوا .

روْح وقد ترك ضمادته كما هي بدون نزعها .. وتوقفت الدماء في يد ريْحان .. وهدأ ألم الحرق بجسد ريتال .

حمدت الله وظللت أرددها حتى سمعت صرخة مريم
ودخلت علي وقد تغطت رقبتها بالدماء ، أخذتها لدورة المياه وأنا أهدئها لكن مظهر الدماء يرعبها أكثر من ألمها .

واتضح الأمر بعد توقف الدماء بعض الشئ فقد وقعت مريم في الصالة وكانت صدمتها برباعيتها وقد تحركت جميعها واحتقنت الدماء تحتها وتورمت لثتها وشفتها .
أخذتها على رجلي وهي تبكي وأنا أبكي معها .

الأربعة مصابون .. أمام عيني جميعهم يتألمون وأنا لا أسطيع أن أرفع عنهم شيئا .

عاد زوجي من العمل وقد احتار بأمرهم وتألم لحالهم .

ومرت الأيام وبات الأمر مستصعبا أكثر مما كان ، فهذا يتألم من رأسه والآخر من يده
والثالثة من ألم جلدها والرابعة من ألم فكها ،
وأنا .... بالطبع لا يحق لي الألم .

كان أول من شُفي ريْحان وتلته ريتاأما روْح ومريم فقد طال الأمر بهم فـــــروْح أخذ جرحه شهراً كاملا أما مريم فلم تنتهي آثار صدمتها حتى الأن .

أربعة عشر شهراً أتموها .. تحملت الكثير من الألم لي ولهم .

أصرّت والدتي على الذهاب إلى مترل والدي لأغير بعض الهواء وأرفه عن نفسي ، لكني كنت أود أن أبقى لحالي في عزلتي مع أولادي ، راضية بمسئوليتي ولا أطمع في أكثر من هذا .

لكني ذهبت على أية حال .. ومر أول يوم طبيعيا أما الثاني
زارنا بعض الأصدقاء من عندهم أولاد بعمر أولادي ، وليلى أختي لديها طفلة تكبر أولادي بخمسة شهور ، وكانت جلستنا وابنائنا جميعا معا
يبكي هذا وتصرخ هذه و.. و

وكلما بكى أحدهم حملته أمه حتى يسكت أو تأخذ بهزه ليرضى ، أما أولادي فلم أسمع لهم حسا ، فكل منهم قد جلس بمكانه يلعب مع إخوته أو يظل صامتا يراقب ما حوله لكن لا يبكي .

حينها فقط اكتشفت ما لم أكن أظنه يوما

فأولادي لا يبكون إلا لسبب ، أما أن يريدون مني حملهم أو هزهم فهذا لم يحصل يوما .

نظرت لجميع من حولي وهن يندبن حظوظهن بأولادهم المتعبين ، وكلهن قد اسمعنني جميع كلمات المواساة على اولادي

_ ربنا يكون في عونك ، دا نت معاك علقة ، واحد ومش قادرين عليه وانت ياعيني ثلاثة غير الكبيرة ..و

فعلمت حينها أنني هي المميزة بينهم فقد رُزقت بهدية ... يحيطها الجمال ، وبطياتها البلاء ، لكن مآلها الخير .. كل الخير .

*****

ألَّمت بي من جديد كربة من تلك الكرب التي يهديني بها ثلاثتهم ، وكأنهم يستمتعون بترك بصمتهم بكل يوم يمر علي ، لكن هديتهم هذه المرة أفقددتني صبري وأوقفت فكري ، حتى حالت بيني وبين فهمي وعقلي ، وجسدت بين يديَّ عقابا سيسعدني ، لكن من وقعتهم حِرتُ في أخلاقهم كالضال في سبيله ، المشتبه عليه مسالكه ، في ليلة داجية مدلهمَّة قد غابت كواكبها ، وتسترت نجومها ، فوجدت نفسي بين جانبي تقف وقفة الحائر المضطرب ، تسمع العواء والزفير ، والفحيح والصفير ، والبكاء والنفير ، فلا تعلم أتنتقم فتزداد ضلالاً ، أم تُحجم لطرق العفو فلا تجد مجالاً !!

الجـــــــــــزء العـــــــــــاشر

مرّ شهران على حادثة تعب الأربعة معا ، وتغيرت الأحوال كثيرا
فقدت مريم ثلاث من أسنان رباعيتها جراء وقعتها .

وحملت جبهة روْح علامة دائمة بمنتصفها بعرض سنتيمتران تقريبا لتذكرني دائما بلحظة الألم هذه .

انتظم نومي قليلا فصار ثلاثتهم ينامون معا ويستيقظون معا وبتُ أنال ما يقرب من الخمس ساعات نوم كل يوم .

لكن في حال استيقاظهم فتلك هي لحظة التعب كله ، أجري وراء هذا ، وأصرخ بهذه ، وأغير لهذا .
حتى يكاد العقل أن يذهب عني ، ومع هذا أعد الطعام وأذاكر لمريم وأحاول بقدر استطاعتي أن أهتم بمترلي وبنفسي .

حتى جاء ذالك اليوم .
وضعت بعض المعكرونة المتبقية من الغذاء في الثلاجة ، ووضعت زجاجة اللبن التي تخص الأولاد ، ورصصت البيض بمكانه ، وبدأت بتجهيز طعام اليوم الثاني حيث كنت سأعد طبقا من محشي البازنجان ، فبدأت بتجهيز خلطته ..

وفجأة أحسست بهدوء المكان ، ظللت أتلفت على اليمين واليسار ، لكن المشهد ينقصه بعض الأشكال .
انقبض قلبي وأنا أشعر باختفاء ثلاثتهم بوقت واحد ..

فتشت كل الغرف إلا غرفة المعيشة التي تحتوي بداخلها على أصعب شئ من الممكن تخيله ، تحتوي على .... الثلاجة
فتحت باب الغرفة وكانت الفاجعة .

فقد نُثرت المعكرونة بالأرض ودُهست بأيديهم وأقدامهم ، وغطتها بعد ذالك آثار اللبن الذي قد فرغت الزجاجة منه تماما .
وكأن الطبخة لم تكتمل برأيهم فأكملوا عليها بالبيض النئ
وأعدوا طبقا مدمرا من المعكرونة واللبن والبيض يغطي أرض الغرفة بأكملها وينثر الرائحة المفزعة والمنظر المؤلم لقلبي قبل عيني .

لم أنطق بحرف ، ليس هناك كلمة تستطيع أن تفرغ ما بداخلي من غضب وقهر من ثلاثتهم معا .

ظللت أنظر لهم وللأرض وأنا أمسك نفسي من فقد السيطرة عليهم ، وشرعت بالتنظيف خلفهم وأنا أكتم غيظي منهم وظللت أنظف
والأرض تمتلئ بالنشا واللبن والبيض وكلما حاولت التحرك أنزلق على الأرض ، وما يغيظني هو ارتفاع صوت ضحكاهم وكأني أحاول الترفيه عنهم أو أعمل على تسليتهم ، حتى أهيت التنظيف الذي أشغلني لمدة ساعة حتى أزلت آثار معركة طبخهم عن أرض الغرفة ومن داخل الثلاجة .

أخرجتهم خارج الغرفة وعدتُ للثلاجة وأغلقت بابها فقد نسيته ، خرجت من الغرفة وأغلقت بابها خلفي كي أضمن عدم دخولهم لها ثانية .

وعدتُ للمطبخ وأنا أبحث عنهم بعيني لكنهم ظهروا أخيرا أمامي وأيديهم الستة تنغمس بخلطة المحشي وتبعثرها خارج الطبق .

حينها لم أتمالك نفسي فصرخت :
أنتوا لحقتوا .. هو انا مش لسة مخرجاكم من عند التلاجة ؟

امسكت ثلاثتهم وقدتهم إلى الحمام وغسلت أيديهم وأنا أحاول بشتى الطرق أن لا أفقد أعصابي عليهم .

ناديت على مريم وطلبت منها ان تتابعهم بنظرها حتى أُصلح ما يمكن إصلاحه ، وحاولت مداواة طبق الخلطة حتى يئست وصنعت واحد من جديد .

دخلت إليّ مريم وهي تسئلني ببراءة عن رائحة الطبخ التي أعجبتها
، ذوقتها لها وحدثتها عن مكوناتها وفائدتها حتى استرعى انتباهي عدم وجودهم حولها .

سئلتها عنهم فأخبرتني أنها وضعتهم بغرفة المعيشة وفتحت لهم كرتونا على الكمبيوتر ليشاهدوه .

لم أشعر بنفسي إلا وأنا أسابق الرياح للغرفة وأفتح بابها وأرى مصيبة المصائب .

كنت قد وضعت بدرج الثلاجة خمس أكياس سكر حتى لا يفسدوا من الحر وبالثلاجة وضعت الجبن والمربى .

عندما دخلت الغرفة وجدت السكر وقد افترش أرضها وأخذ روْح يصنع منه جبالا وكأنه يلعب برمال الشاطئ ، ثم ما يلبث أن يأخذ حفنة بيده ويقذف بها ريْحان ، الذي لا يسكت لإهانته فيأخذ هو أيضا حفنة ولكن ليست من السكر بل من الجبن الذي بيده ويقذف بها روْح بعد أن كان قد دهن جهاز الكمبيوتر بالجبن وحمم " الماوس والكيبورد " بحمام من الجبن .

أما ريتال فقد جلست بداخل الثلاجة بعد أن فرغت جميع الأرفف أمامها فجلست بداخلها فالثلاجة كبيرة ١٦ قدم، وها هي تجلس بمكانها وتظن أن إخوتها يلعبون لعبة ممتعة فلم تجد ما تقذفهم به إلا المربى التي أمامها ، فتفتحها وتضع بها يديها ثم تخرجها وتقذفهم ببعضها وتمسح ما تبقى بداخل الثلاجة أو شعرها أيهما أقرب من يدها حينها .

سقطتُ بمكاني وظللت أنظر لهم بدون حتى أن أنهرهم ، فكأنما خارت قواي لهم وأمام لعبهم ولهوهم

لم أعد أدري هل أضربهم ؟ .. أيحق لي هذا ؟
هل أضرب مريم لأنها تركتهم ؟ .. أيحق لي هذا ؟

تحيرت هل أزيل آثار تدميرهم أولا أم آخذهم للإستحمام أولا

بدأت بالتنظيف فذهبوا ثلاثتهم للأثاث كي يجلسوا عليه بملابسهم ويدهم المتسخين .

فقررت البدأ بتحميمهم وكلما أخذت واحد عاد الإثنين الآخرين لتدمير ما تبقى من الثلاجة .

إحترت معهم ومنهم وبهم ، أخذت ثلاثتهم معا للاستحمام وخلعت عنهم ملابسهم وحممتهم وأزلت عنهم معركة الطعام البشعة .

وعدت بهم لغرفتهم وقد لففت كل منهم بمنشفة وألبستهم ملابسهم وعدت لغرفة المعيشة وانا أتخيل حالها أفضل مما تركتها به ، لكن الأحلام لا تتحقق كثيرا هذه الأيام .

وبدأت من جديد بالتنظيف والمسح لكن هذه المرة أتعبني السكر ولمه وآثاره المتبقية بالأرض ، وبعدما أنهيته ومسحت الثلاجة داخلها وخارجها من آثار المربى ، ذهبت لجهاز الكمبيوتر المحمل بآثار الجبن بكل جزء منه .

وفسدت لوحة المفاتيح وكذالكم الفارة وخرج سلك السماعات من مكانه واختفت علامة الحياة من موصل النت .
وصرت أندب حالي ومآلي فعند رجوع زوجي سيكون عقابي .

ومن جديد لم أراهم من فترة أمامي ، وجهزت نفسي لمصيبة جديدة وكارثة عتيدة ، تهز أركاني وتنهي ما تبقى من آمالي .

وعدت لغرفة النوم فوجدت ثلاثتهم وقد ناموا بمكانهم بعد استحمامهم وكذالك نامت مريم بجانبهم .

فُتح الباب ودخل زوجي ورأى حالي ، فعلم عظيم تعبي وآلامي ،
لكني لم ألتفت إليه وعدت لمطبخي وأنا أفرغ ما بقى من طاقتي بالطبخة التي لم ولن تكتمل
.

ومرت ساعة ثم عدت للصالة وجلست أمامه ، ونظرت له ولأولاده وقد كانوا مستيقظين حينها ، وبدأت دون أن أدري البكاء ، وشكوت له ما وجدته اليوم من البأساء والضراء .

وظلّت دمعاتي تنهمر بغزارة ، وأنا لا أستطيع التوقف فقد تعبت ،
أجل تعبت .. تعبت من كل شئ ..
لم أعد أحتمل كل هذه المشقة التي تزيد يوما بعد يوم ، وهذا الإرهاق الذي قد ملأ جنبات روحي وصار حتى النفس يخرج مني بمشقة وألم.

عدت يا زوجي الآن وكان الحال الآن كما كان قبل نزولك فالمكان كما هو والأركان كما هي
لكن لو تدري أن السماء قد انطبقت على الأرض بغيابك
وأن الجبال قد انهرن بغيابك
وأن السيول أغرقت البلدان بغيابك
كل هذا قد حدث بغيابك
وأصلحته وحدي بفضل الله وأعدت المكان كما كان ، وعدت أنت ولم تدري ما حدث بالمكان .. فالأرض كماهي والأركان كما الأركان .

وصار تعبي ومشقتي طوال اليوم كالهباء المنثور والقدر المكسور

لا تسئلني عن شاني وتجزل السؤال ، فالألم قد استشفى بصدري وسأعلن أمامه الاستسلام
.

وضعت يدي على وجهي وقد سكنت دمعاتي تقريبا بعد حديث قلبي الذي لا أدري هل
سمعه غيري أم أني كنت أحدث نفسي .

لكن إحساسا غريبا جديدا أنبهني ، رفعت رأسي ووجدت أيديهم الست تربت على قدمي
وجميعم يكرر حرفا واحدا اسعدني وأبهجني ... ااااششششش
والمقصود هو .. معلش

انتبهت لهم وقد تحت تأثر ملامحهم لأجلي فضممتهم لصدري وأنا استشعر حبهم لي
بلمسة يدهم لقدمي

وانتهى يوما طويلا امتلئ بالألم منهم ومن أجلهم لكن ألم اليوم الذي يليه لم يكن يخطر ببالي
.

استيقظت من نومي على ألم في جسدي بكامله ، لم أعد أدري مصدر الألم ، دوار شديد
وألم بمعدتي وظهري يؤلمني وقدمي
اتصلت بزوجي في عمله لكن الهاتف مشغول طوال الوقت .

اتصلت بمحمول والدتي وفي أثناء رنين الهاتف خطرت لي خاطرة ، وعندما أجابت والدتي
سئلتها أين هي ؟
فأجابتني أنها بخارج المترل فسئلتها عن ليلى

" فليلى تسكن بنفس العمارة مع والدتي هي وزوجها وأولادها "

فأخبرتني أنها لا تدري عنها شيئا .

حثثتها بالعودة لها فأنا أشعر أن مكروها أصابها
ومرت الدقائق كساعات والألم ما زال يتآكل جسدي وصرخات روحي منه تكاد تقتلني
والأرض من حولي تدور وتدور .

رن جرس الهاتف وكانت والدتي :
أيوة حبيبتي .. معلش اتأخرت عليك
بس أصل أنا لما جيت لاقيت أختك مغمى عليها في شقتها .

*****

حدثٌ عظيم من أحداث الخليقة كان لي نصيب به ، فأنا أشعر أن نفسي كالمرآة التي تسعدني بمنظرها ، وكأني بالأُنس صقيل يصقلها فيضئ صفحتها شيئا فشيئا ، وكأنني كنت أحمل بين جوانحي اضطراب وحدة وضعف ، فأصبحت لا أشعر بما كنت أحس به من قبل ، لأن الأُنس ملك عليَّ قلبي واستخلصه لنفسه ، فلم يترك فيه مجالا للوحدة بعد اليوم

الجـــــــــــــــــــــــزء الحـــــــــــــــادي

عـــــــــــــــــــــــــشر

لم أنتبه لكثير من الأمور أثناء يومي بسبب انشغالي طوال الوقت بالتفكير بـــــــــليلى .

وفي أثناء أسبوع كنت رتبت لزيارة أهلي كي أحدثهم في هذا الأمر .

كان أثر كلماتي عليهم بالبداية الضحك ... فقد ضحك والدي وكذالك والدتي .

ظللت أنظر لأختي وأنا أحثها على مساندتي لكن فجأة بدون مقدمات وجدت أبي يقول أنه يصدقني .

تفاجئت من موقفه المتغير تماما بين لحظة وأخرى .

لكنه أضاف أن هناك أمور كانت تحصل لنا ونحن صغار أشعرته بهذا الأمر لكنه لم ينتبه لها كثيرا ، ثم تغيرت أحوالنا بعد دخولنا المدرسة فلم تعد الأمور تحدث كما كانت بالسابق .

سئلته عليها وبدأ هو وأمي بالحكي لنا ..

بعد انتهاء قصصهم التي تعد قليلة بسبب عدم تذكرهم لمعظم أحداثها .. تسائلنا جميعا ..

لمن نذهب من الأطباء لنعرض عليه الأمر ؟

وقد كان لنا طبيب للعائلة متخصص بعدة مجالات بالطب ، فذهبنا إليه لنطرح عليه قصتنا .

استقبلنا الطيب بصدر رحب وطلب منا التحدث بصراحة وأن لا نغفل شيئا في قصتنا

أنا :

أظن الموضوع بدأ على حسب ذكر والدي ووالدتي من واحنا داخلين المدرسة حيث تم فصلي عن ليلى حينها بدأ المرض يظهر علينا وكانت نتيجة هذا ان إدارة المدرسة خافت ان الذنب يقع عليهم فأرجعونا لفصل واحد مع بعض .

ليلى :

بص حضرتك احنا مش فاكرين كل حاجة ولا والدي ووالدتي لكن الي فاكرينه كويس بمجرد ما بنبعد بنتعب .

أنا :

في حاجة تانية غريبة برضه .. تقريبا كنا في المرحلة الإعدادية وكل اخواتي جاتلهم الحصبة وكان من الطبيعي انها تجيني ومرض كل اخواتي حتى ليلى وانا ما مرضتش لكن مدة المرض كانت مضاعفة عند ليلى .

بمعنى لو قولنا كلهم تعبوا اسبوع فليلى تعبت اسبوعين .. بعدها لما رحنا كلنا للدكتور وكشف على اخواتي وعليا انا كمان قال ان الحصبة جاتلي مع اخواتي لكن مش عارف أعراضها ازاي ماظهرتش عليا !!

عند ذالك الحد من الذكريات اسند الطبيب رأسه على يديه ثم سئلنا عن أمور حديثة حصلت مثل هذه .

أنا :

أيوة يا دكتور لما كنت حامل بالتوأم أول مرة كنت آخد مثبت الحمل كان وأنا بالشهر بالسادس وكان نوع الدوا شديد حتى الدكتورة قالتلي انتبه واخده وانا مريحة علشان ما تعبش.

ليلى :

تاني يوم على منتصف اليوم مرة واحدة لاقيت الدنيا بتلف بيا ومش عارفة اخد نفسي ونبضات قلبي عالية جدا بعدها ما دريت بحاجة عرفت بعدها اني اغمى عليا .

وفي اثناء ما كانت والدتي بتفوقني لاقينا زوج اختي بيتصل وبيقول ان اختي من ساعة ما خدت دوا المثبت وهي تعبانة جدا ومش عارفة تتنفس بعد كدا اغمى عليها .

أنا :

ساعتها الكل استغرب ان احنا الاتنين حاسينا بنفس الاعراض في نفس الوقت لكن كان واضح ان السبب في الاعراض هي أنا .

مؤخرا يا دكتور انا بقيت مشغولة مع الاولاد وبقى صعب اني آجي زيارة لأهلي وممكن تطول المدة لشهرين وانا ما شوفتهم ..

وفي مرة تعبت وحسيت بأعراض ارتفاع الضغط وكانت صعبة عليا لحد ما رحت للدكتور لكن كانت الاعراض اختفت عرفت ساعتها ان ليلى ارتفع ضغطها وراحت برضه للدكتور والأعراض ما اختتفتش من عندي الا لما هي ضغطها انخفض .

ليلى :

ومؤخرا برضه ظهر ببطني وجع شديد بدون سبب واختفى برضه بدون سبب بعدها اكتشفت ان ولاد اختي خبطوها ببطنها خبطة شديدة مكان الفتئ الي كان عندها وما راحش الوجع من عندي الا لما أخدت اختي حقنة مسكن .

دي يا دكتور الحكاية كلها واحنا دلوقتي مش عارفين نعمل ايه أو نروح لمين ؟

لكن كانت اجابة الدكتور :

سيبوني يومين ابحث في الموضوع وأرد عليكم .

وبالفعل تركناه يومان ثم عدنا إليه .

الدكتور :

بصوا يا بنات دلوقتي علم الأجنة والتكوين يعد من أكتر الأمور التي نعلم عنها قليل من كثير .

ازاي الجنين بيتكون وايه الي يخليه يتكون بالهيئة دي والكيفية دي كلها أمور علمنا بعض من كيفيتها ولا نعلم عنها شيئا آخر .

فانا عاوزكم تتخيلوا ان احنا مع جهلنا بالأجنة فدا يعتبر لا شئ مقارنة بجهلنا بأمور التوأم أو ازاي وليه بيتكون توأم .

سبحان الله كل شئ يعتبر معجزة وكذالك وجود حد زيكم ، انتم تعتبروا اتكونتم من نفس المكونات ... اتقسمت بينكم .

فلما ييجي علينا وقت نلاقي ان في مؤشرات غير طبيبعية بتحصل بينكم فدا بالنسبة ليكم امر طبيعي لانكم متكونين من نفس المكونات

الوضع الي انتم فيه نادرا ما بيحصل لكن ثبت علميا وجود حالات شبيهة لكن اعتقد كل حالة مختلفة عن التانية ..

بمعنى .. اعتقد لما بتفترقوا عن بعض دا بيأذيكم داخليا وبتعبروا عن الأذى دا بالتعب الجسدي لكن بما انكم كبرتوا اصبح غيابكم عن بعض مدة طويلة هو دا الي بيأثر عليكم فبينتج عنه حساسية زايدة لبعضكم علشان كدا لما واحدة تتعب التانية بتجيلها اعراض التعب دا .

اما حالة اصابة الحصبة فدي لوحدها معجزة لان ليلى تعبت بمدة مضاعفة وانتِ ما تعبتيش خالص لكن الدكتور اكد ان الحصبة جاتلك فمن الواضح انكم كمان تقدروا تنقلوا التعب لبعض .

ازاي دا حصل او ليه .. كل دا اجابته في جيناتكم انتم الي ربنا ابدع في خلقها .

نصيحتي ليكم يا بنات ما تروحوش لدكاترة متخصصين لأن الأمر دا مش مرض دي نعمة من ربنا ليكم ويكفي ان ولا واحدة فيكم ها تحس في يوم انها لوحدها بالاضافة ان سبب ردود الفعل دي مختلفة .. منها البعد عن بعض لمدة طويلة او زيادة الالم عند حد فيكم فالتاني بيستقبله بصورة عرضية ..

طبعاً كل دي فرضيات والله أعلم .

غادرنا المكان ونحن بحالة من الوجوم عدنا لبيت أهلي وحكينا لهم كل ما حدث واتفقنا جميعا على الحياة بصورة طبيعية فلطالما حيينا بهذه الطريقة .

وعدت لمنزلي مع أولادي من جديد ومّر شهرا كاملا على هذا الأمر وأتم الأولاد عاما ونصف بفضل الله .

زادت حركاتهم وكلماتهم وظهرت أسنانهم وصاروا أدوات فساد وتدمير متنقلة .

وبعد يوم طويل من الجهد والتعب أخيراً هدأ المكان ، أخذت أبحث عنهم حتى وجدتهم وقد التجئ كل منهم مخبأ واستتر به عن الأعين حتى أثر عليه الهدوء فغاب عن ما حوله الى

عالمه الآخر الواسع الذي يرتحل اليه في ليله القصير .

هدوء ما بعده هدوء ، الرؤية ازدوجت عندي من كثرة التعب .

المكان محطم من كثرة العبث ، الجسد متخلخل من كثرة الأرهاق .

ذهبتُ أجر أقدامي الى كل منهم وأضعه في فراشه حتى استوى ثلاثتهم ما بين طبقات الألحفة .

اثنيت الأغطية تحت المراتب حتى لا يجد برد الشتاء طريقه اليهم

اطفئت الأنوار حتى لا تزعج أعينهم

أبعدت الألعاب حتى لا تزعج أرجلهم

سويتُ الأثاث حتى لا يزعج حركتهم

جهزت المكان لحين استيقاظهم .

ثم عدت لغرفتي أتلمس طريقي بيدي فالرؤية لم تعد في صالحي ، وقبل صعود حُلمي المؤجل وأمنيتي الدائمة .

أحسست بهم ، تلفتُ خلفي فإذا بثلاثتهم يبتسمون إلي وأعينهم تحدثني

" خدعناك أمنا " .

سقطت دمعتي بقهر وأنا أنظر إليهم ، ثم سمعت روْح وهو يقول .. ميييييه .

استغربتُ حالي وانا اهرع الى المطبخ لأسقي ثلاثتهم ... كيف تجددت طاقتي وتناسيت غضبتي

وما هي الا لحظات وقد عاد البيت يعلوه الصخب لبكاء احدهم وضحكات الثاني وتشجيع الثالث للاثنين وأنا اشاهد فقط وانتظر اللحظة التي سيلتجئون فيها ثانية الى مخابئهم وأفكر جديا بتجهيزها مبدأيا لتكون بديلا لفراشهم حتى لا أضيع وقتي كل يوم في نقلهم ثم أجدهم يقفون خلفي وأفقد فرصتي الوحيدة في النوم .

*****

يختلف كل منا في أساليب راحته ، فراحة البعض في النوم ، وأخر في سماع أم كلثوم ، وآخر في مشاهدة التلفاز ، وغيرهم .. وغيرهم ، أما راحتي فكانت في سماع القرآن ، لم أعتقد يوما أن نفسية البشر ستجعل جبروتهم يعلو على رحمتهم فيمنعوا غيرهم من راحته وطلبه الاختلاء بربه ، ويبخلوا عليهم بساعة ، أو يصفحوا عنهم عند سهوٍ وحاجة ، أصناف متعددة نقابلها بين قاعات الحياة ، بعضهم قوما مفاليك قد دارت عليهم الحياة دورتها ، وسلبت المواهب والصفات التي يعيش بها أمثالهم ممن ولد مولدهم ، وصار عفوهم وسمحهم يُعد نقيصة بالنسبة لهم

الجـــــــــــــــزء الثـــــــــــــــــاني عشـــــــــــــــر

مرت الأيام وأتم ثلاثتهم عام وثمانية أشهر ، شعرت بالسعادة لتقدم حالتهم معي .

جلست أُلبسهم ملابسهم وحفاضاهم وأجهزهم للنزول ، فاليوم عندي مشوار هام أتشوق للقيام به من فترة طويلة .

تجهزت أنا وثلاثتهم وكانت مريم عند حماتي فترلنا خمستنا فقط انا والتوأم وزوجي .

ووصلنا للمكان المنشود وسبقني زوجي بالدخول وتوقفت انا لأشتري لأولادي بعض الحلويات ثم أخذت ثلاثتهم بيدي ودخلت .

وفي أثناءعبوري من الباب تذكرت دخولي بنفس المكان منذ عام مضى مع ثلاثتهم ايضا لكن الوضع كان مختلفا كثيرا .

فقد كان حينها ريْحان وروْح ومريم فقط معي أما ريتال فكانت عند حماتي .

دخلت وأنا احمل ريْحان وروْح على ذراعاي ومريم بجانبي وجلست بالأرض وقد كنت متأخرة قليلا في الحضور فقمت سريعا محاولة تعويض ما فاتني .

وما هي إلا دقائق وقد عدت ثانية لمكاني بجانب أولادي وانشغلت هم حتى سمعت صوتا مدويا يقول ... استوو

هبّت جميع النسوة اللاتي كن معي بالمصلى النسائي ليبدأن أولى ركعات صلاة التراويح لذالك اليوم ، ووقفت أنا ايضا بجانبهم وأنا أُشير لابنتي مريم ان لا تصدر صوتا لأن مصلى النساء مفتوح على الرجال ولا يفصل بينهم إلا ستار .

وكبّر الإمام.. وقرأ بكل ركعة ربعا من سورة الكهف وانتهت أول ركعتان من الصلاة .

نظرت لريْحان وروْح وقد غلبهم النوم ، وكبر الإمام للركعتين التاليتين.

ودخلتُ بالصلاة وبدأ الإمام بالفاتحة وعلا صوته .. واستيقظ ريْحان وروْح من النوم .. وبدآ بالبكاء .

تفاجئت من ردة فعلهم فلم أعتدها قبلا ، أشرت لهم بيدي ليصمتوا لكن صوت الإمام أثار توترهم فكلما علا صوت الإمام كلما علا صوت صراخهم .

احمرت عيناهم سريعا وصار جسدهم ينتفض كأن صوت الإمام أثار الذعر بنفوسهم . صرت بين نارين هل اترك الصلاة أم أكملها وبعد الصلاة أتصرف معهم ؟

لكن قررت في النهاية ان أخرج من الصلاة كيلا أُضيع صلاة غيري ببكاء أولادي .

وانتهت الركعتان وجهزت نفسي لأخرج من المسجد وأعود لبيتي فلا يجوز أن أُفسد صلاة الحاضرين لأنانيتي وامسكت الهاتف لأتصل بزوجي لأعلمه بقراري وأنني سأمشي وأنه لا داعي للخروج معي فالمترل قريب جدا من المسجد .

واخرحت رقمه وأنا أنظر للنسوة اللاتي حاصرنني بنظرات الكره .. فاعتذرت لهم بأدب وطلبت المسامحة وشددتُ على أن الاولاد أول مرة يظهر منهم هذا الفعل عند سماع القرآن .

ونظرت للهاتف ثانية وضغطت على رقم زوجي لأتصل به و..

لكن ارتفع صوت امام الركعتين الأخيرتين وهو يقول :
الأخت الي معاها طفل ياريت تاخد بعضها وتمشي

انتفض قلبي وأنا أسمع الطرد وهو يأتي لي أمام الجميع ... رجال ونساء .

لكن الإمام لم يسكت :
اعتقد ما ينفعش كدا.. صلاتك في بيتك أحسن .. ماحدش قالك تنزلي تصلي في الجامع وتضيعي صلاة الناس الي حواليكي
ياريت يا اختي تاخدي بعضك ومعاك اولادك وتروحوا على البيت افضل .

سقطت الكلمات على أذني كالصاعقة .. شعرت بالمكان يدور من حولي .. أعين النسوة تنهشني بالشماته ولمحت على وجوه بعضهم شبح ابتسامة متخفية خلف قناع يقول :
ان هذا أفضل للجميع

سقطت بعض دمعات على وجنتي وأنا أُقاسي ألم الإحراج وأحس برودة تسري في أوصالي
.

تمنيت لو أرى هذا الإمام فأُعلمه أن الدين ليس بالفظاظة في التعامل

تمنيت لو أخرج أمام الجميع وأعلمهم أنني كنت بالفعل بطريق الخروج وليس سمعا للإمام .

تمنيت أن أقول أنه لم يخرجني إلا الخوف من ضياع صلاة من حولي وليس خوفا من كلمات الإمام .

تمنيت وتمنيت .. لكن كلمات الإمام لم تدع لي فرصة فقد أعاد التنبيه ثانية وكأنني لم أسمع المرة الأولى .

ظننته سيفهم أنني أنتظر حتى تقام الصلا فأخرج وهم يصلون بديللا للخروج وهم جميعهم يرون كل رائح وجاي .

ظللت أردد في نفسي .. أول مرة أدخل المسجد وها قد طُردت منه يالها من فاتحة.

رفعت هاتفي على أذني بعد أن ضغطت على رقم زوجي ..

ورد زوجي علي وما هي إلا لحظات وقد خرجت من مصلى النساء وأعين الجميع تراقبني وأنا أسير تجاه باب المسجد .

وعدنا للمنزل وكانت تلك أول زيارة لي للمسجد مع ريْحان وروْح ولم أعد إليه ثانية بعدما طردت منه بسبب أولادي .

أفقت من ذكرياتي على تغيُر المكان في هذه السنة .. فقد تم عمل توسعة في المسجد وفي مكان النساء أيضا .

أخذت مكاني في الصف الثاني بجانب الحائط ووضعت الأولاد بجانب بعض جالسين وصليت ركعتين تحية المسجد .

أنهيت الركعتين ووجدت اثنتين من النساء قد جلسن بجانبي وقد رسمت كل واحدة منهن على شفتيها ابتسامة خادعة كأني أرى الكذب موسوما على تلكم الشفاه .

احدى النساء :
بصي حبيبتي انت شكلك أول مرة تيجي فاحنا حبينا نقولك ان الامهات الي معاهم اولاد مكانهم في آخر صف ورا .

صُعقت من كلماتهم الصريحة الواضحة بدون خجل يريدون أن يتحكموا بي وبمكاني ، لكني كظمت غيظي وأنا أُذكِّر نفسي أني سأحمل وزر ضياع صلاتهم لو أفسدها أولادي فسكتُ قليلا ثم أخبرتهم أنني سأرجع لآخر صف .

التفتُ برأسي لصورة الكعبة التي تحتل حائطا بأكمله وتخيلتُ نفسي بالحرم خلف الإمام وأطفالي حولي يقفون بانتباه يستمعون بخشوع .. وآيات القرآن الكريم تتلى .

اشتقت للصلاة بكل جوارحي فعام وراء عام يمنعني الأولاد .. وعام وراء عام اختفت بهجة القيام والصيام .
رمضان يأتيني ويذهب عني ولم أرتوي منه شيئا .. لن أدعه يذهب عني هذا العام .

نظرت لثلاثتهم وقد جلسن بجانب بعض ولم يتحركن من مكانهم فوقفت بجانبهم وكبرتُ للصلاة .

انتهت أول ركعتين ووجدت النسوة يُعدن النظر إلي وأعينهن تكاد تتآكلني وقد قالت إحداهن :
هو احنا مش قولنالك ترجعي ورا
احمدي ربنا ان العيال صوتهم ما كان عالي المرة دي والا كنتِ ضيعتي علينا الصلاة ورا الامام .

نظرت لها بهدوء فكلماتها لا تضايقني .. لا أدري لماذا ؟

أنا :
يا أختي العيال صوتهم ما كان واطي .. العيال ما طلعوش صوت أصلا بالاضافة انا كنت هارجع ورا بس لما لاقيت ورا صوت الاولاد عالي قلت ها يضيعوا عليا الصلاة خاصة ان اولادي مش ها يعملوا صوت وانا متأكدة منهم .

نظرت إلي بعض النساء بريبة فأكملتُ :
ليكم عليا لو عملوا صوت هارجع ورا لكن ما تحاولوش تضيعوا صلاتي من غير سبب .

وكبر الامام للصلاة هذه المرة ونظرت لثلاثتهم وقد فزعوا من الصوت فأشرت لهم بيدي .. ان اهدأوا
وقد كانوا كذالك سبحان الله .

اخرج كل منهم من جيبه بعض الحلويات وبدأوا الأكل وأعينهم تراقبني بين الفينة والفينة .

وكلما رأيت أحدهم يصدر صوتا أشرت له بيدي فيصمت تماما .

كلما أنهيت ركعتين من الصلاة التفتُ إليهم وأنا أعيد توجيهاتي من جديد بحزم لثلاثتهم : ما حدش يقوم من مكانه ولا أسمع صوت

وأُأَكد على كلماتي بنظرات حادة اوجهها لهم ثم ابتسم لهم قبل القيام للركعتين التاليتين .

وكم أدهشني محاولة ريْحان للقيام من مكانه لكن يد روْح أوقفته
ابتسمت بصلاتي من موقفهم فكأنهم يعينون بعض على سماع كلامي .

انتهت ركعات صلاة التراويح وأنا لا أصدق نفسي من كرم الله الواسع علي فالأولاد لم يتحركوا من مكانهم ولم يصدروا صوتا الا بعض الهمهمات البسيطة لبعضهم البعض .

شعرت بالعزة بهم فأخلاقهم شرفتني وسط متصيدات الأخطاء .

جاءت إلي إحداهن وهي تقول :
انا صراحة ما تخيلت انك ها تعرفي تتحكمي فيهم بس صراحة برافوا عليكِ .

شكرتها على كلماتها و لملمت حالي وتركت خلفي بعضا منهن يتهامسن بشأني .

وكان أكثر ما أسعدني هو أني حفظت مكاني بأخلاق أولادي التي شرفتني .

وخرجت بطريقي ووجدت زوجي ينتظرني خارج المسجد وابتسامته تملأ وجهه فقد خشي أن يفعل الأولاد ما فعلوه المرة السابقة .

وعدنا بطريقنا ولأول مرة يمسك الأولاد أيدي بعض
كيف ولماذا .. لا أدري !

فقد وجدت ريْحان وروْح قد أمسكا أيدي بعضهم فاقتربت منهم ووضعت يد ريتال بيد ريْحان وسار ثلاثتهم أمامنا ورأسي تكاد تجاور النجوم من فخري بهم وبأخلاقهم بالمسجد .

لكن لم يدم الأمر طويلا فقد وصلت المنزل وظهر وجه الأشرار الحقيقي بعد أن نزعوا قناع البراءة والطفولة وما كتموه بالمسجد أعلنوه صريحا بالبيت و... شنوا الحرب عليّ من جديد .

*****

جبينا عرفته وأحببته ، ما رأيته يوما إلا متلألأً تلألؤ الكوكب في جنح ليل مبرد ، ومفتر الثغر عن الأنوار ، كضوء القمر في الأسفار ، واني لأعلم أن بين جنبيه هما يعتلج ، وقلبا يدب فيه اليأس كدبيب الآجال في الأعمار ،لكن هذا ما منعه أن يكون له كيان مضئ ونفساً بالخير تستضئ ، ولسانا يدخل السرور على من عرف ومن لم يعرف بين الخلائق أجمعين

الجـــــــزء الثـــــــــالث عـــــــــــشر

بعد انتهاء شهر رمضان المبارك جاء العيد ..
كانت ملابس يوم العيد متشابهة بشكل غير طبيعي فقد كانت هدية من حماتي .

كان مشهدهم ملفتا للنظر أكثر مما هم في الطبيعة وعندما كان يسئلني أحد عن أسماءهم أضطر لرفع رأسهم إليّ لأرى وجههم ثم أحدد اسم من يقصدوه .

كان الموقف محرجا أكثر منه مضحكا وتذكرت قصة امرأة صينية قامت بكتابة أرقام على رأس أولادها لتعرف كل واحد منهم من كثرة شبههم ببعض .

بعد انتهاء أيام العيد بدأت بترتيب المطبخ وإخراج كل ما لا احتاجه منه .

وكان النصيب الأكبر لأكياس السكر ، اتخذت طريقي للثلاجة كما أنا معتادة ، لكني تذكرت ما فعلوه بالسكر آخر مرة كان فيها في الثلاجة
قررت حينها أن أضعه بمكان لم تعتد أيديهم الوصول إليه .. وقع الاختيار على دولاب الملابس .

لملمت أكياس السكر ووضعتها بعلبة كرتون ووضعتها بدولاب المناشف والملاءات وأغلقته بالمفتاح .

ومر اليوم كما هو معتاد في الكر والفر بسببهم طوال اليوم ، حتى استسلموا جميعا للنوم على الثالثة فجراً.

في الصباح شعرت بقشعريرة تسري في جسدي وأنا أحس بأشياء تجري على قدمي .

هببتُ من مكاني ورأيت السرير وهو يكسوه ذرات السكر وثلاثتهم يحاولون اغرق جسدي به .

انتفضت من مكاني ومن أثر نفضتي تناثرت الذرات بكل مكان

حسبتها حسبة سريعة كيف سألملم آثار السكر هذه المرة وهل سأصل له كله أم سيختفي بعضه تحت الألحفة أو السرير .. ثم سيصل النمل اليه .. او حتى بعض الحشرات .. أو ...
تفاجئت بأفكاري وعيني تأخذ في الإتساع من قهري
نظرت لثلاثتهم وصرخت ... ليييييه كدا ؟

نظرت للدولاب ووجدته مفتوحا .. هل معقول أنهم استطاعوا فتحه بالمفتاح ؟ مستحيييييل .

اتصلت بزوجي وبمجرد أن أجاب لم أبدأ بالسلام حتى .. سئلته هل فتحت دولاب المناشف اليوم ؟
فأخبرني بأنه فعل ذالك فقد أراد منشفة لاغتساله قبل النزول .

وجدت نفسي أعد كلمات بعقلي تفرغ شحنة الغضب التي بداخلي فيه ،
لكنه أسرع قائلا :
أنا مشغول دلوقتي شوية وها كلمك .

وأغلق الهاتف وأنا ما زلت أنظر حولي بألم يتضاعف كلما وقعت عيني على اماكن وصول السكر في الغرفة .

أخذهم على غرفة مريم التي كانت استيقظت وأدخلتهم عندها وطلبت منها مراعاهم حتى ألملم آثار حربهم الأخيرة .

وعدت لغرفتي وفتحت الأنوار حتى أرى الوضع بصورة جيدة وما رأيته ألجمني .

فقد وصل السكر لدولابي ودولاب والدهم فقد كانا مفتوحين مثل كل يوم ، فادخل الأولاد السكر بداخل كلا من الدولابين .. وغطى السكر أركان السرير وجوانب الغرفة إلتفتُ للمرآه ووجدت السكر قد وصل حتى لشعري .

ظللت أنظف الغرفة ما يقارب الساعتين وكلما أنهيت مكان وسِرتُ به وجدت ذرات السكر ما زال بعضها بالمكان .

ظللت أنظف وأنظف حتى انتهت قواي .. حمدت الله أن الأمر انتهى أخيرا وذهبت لغرفة مريم وتأكدت ان الأولاد بخير .

عدت لغرفتي واتصلت بوالدتي أطمئن على حالهم فلي يوما كاملا لم أحدثهم .

وكان الاتصال الذي تفاجئت فيه أن والدي سيقوم بعمل عملية بعينه مساء اليوم .

لكن ما أحزنني هو أني كنت اعلم هذا الأمر لكني نسيت

اعتذرت لأمي على تقصيري الشديد معهم وأنهيت المكالمة بعدما اتفقت معها على الزيارة باليوم الثاني .

ظللت طوال اليوم أعمل بالمترل واراعي الأولاد وأذاكر لمريم فهي على وشك الدخول للصف الأول الابتدائي .

حتى أنهكت تماما وانتهى اليوم كسابقيه الثالثة فجرا.... ولم يلبث أن بدأ ثانية الثامنة صباحا

تحركت ساعات اليوم بسرعة كعربات قطار تخشى البطئ فتحيد عن قضباها الحديدية ، وبين كل فينة وفينة اتصل لأطمئن على والدي وأرتاح لعلمي باستقرار حالته .

بات موعد ذهابي لوالدي قريبا وكلما أنهيت عملا قام الأولاد بإفساده ، حتى يئست منهم وتمنيت لو أجلس بالمترل فجسدي يحتاج لبعض الراحة .

لكني منعت نفسي من هذا الأمر كي لا يغضب والدي ويقول عني مقصرة في حقه .

أخذت أقنع نفسي أني سأذهب سريعا وأعود وأكون حينها قضيت الواجب علي .

أسرعتُ بإنهاء اعمالي وتجهيز اولادي وأخذنا والدهم وذهبنا في طريقنا .

وفي الطريق تساءلت محدثةً نفسي : ماذا لو أذهب غدا فأعمالي لم تنتهي بعد وبالتأكيد سأجد الطريق مكتظاً بالسيارات وسيطول الوقت بي ؟

لكني رفضت الفكرة من جديد وأنكرتها سريعا فقد لزم علي الذهاب فلا يصح ان اتأخر أكثر من هذا، بالاضافة انني لا بد لي من هذه الزيارة عاجلا او آجلا .

وصلت أخيرا لوجهتي وأسرع الأولاد بالصعود للمترل ودخلته أيضا متسائلةً عن مكان والدي فعلمت بوجود ضيف معه .

انتظرت ..وانتظرت ..لكن هاهو الوقت ينساب من بين يدي وحتى الأن لم اسلم عليه وقد اقترب موعد رحيلي .

جلس الأولاد يلعبون بالمكان وأنا طوال الوقت أنظر ساعتي فقد مللت من الجلوس .

استأذنت بالدخول على والدي في مجلسه فأجاب على طلبي سريعا بالقبول .

ودخلت لمجلسه ومعه ضيفه ووقعت عيناي عليه بجلبابه الأبيض ونظارته ذات العدسات السوداء ووجهه المنير الذي فاق بياض جلبابه

تباطئت خطواتي فوجدته وقد قام من كرسيه واتجه نحوي فخجلتُ منه وأسرعتُ اليه مقبلةً يده .

وأنا أردد بصوت مهزوز لا أدري له سببا :

عينك عاملة ايه دلوقتي يا بابا ؟

وجاء صوته رزيناً رقيقاً يثير الدفء والأُنس في النفس :

الحمد لله يا بنتي

فأسرعتُ بالخروج من المجلس وهو ينادي علي :
اقعدي يا بنتي شوية ..اقعدي

لكني لم ألتفت اليه فكيف لي هذا وقلبي ينتفض ما بين جنبات صدري ،خشيت أن ألتفت إليه فيفضحني بانتفاضته ،أسرعت بدخول دورة المياه وغسلتُ وجهي بالماء البارد .

وانعكست صورتي في المرآة وقد نسج عليها الحزن غبرة سوداء وجفوناً تحار فيها مدامعها حيرة الزئبق الرجراج ، حتى نزلت ساخنة على وجنتي تخطُ طريقها بألم وتثير غصة في الحلق تتمنى لو تصاحبها صرخة فتريح ذخائر النفس وبعد مرور دقائق قليلة خرجتُ بخطواتٍ متمايلة وخلعتُ عني حجابي وقررت المكوث ريثما يغادر الضيف وأجالس أبي قليلا فكم افتقدهما .

افتقدتُ عينا أبي العسليتين وحاجبيه السوداوين المرسومين .. افتقدت ابتسامته التي تظهر جلية في عيونه ..
لمعتها عند سعادته ،دمعتها عند حزنه وشجونه ..

افتقدتُ أبي فكم أنستني حياتي كم يهمُني رؤيته وكم اشتاق له ،للمسة يده عند تقبيلها ، لمعانقته عند مجيئي، لابتسامته لرؤيتي ، لعيناه التي أرى فيها انعكاس صورتي وافتخاره بي .

لم أكن أعلم أني أُقدِرهُم هكذا أو أن احتجابهم عني سيؤلمني بهذه الطريقة .

لهذا لا استطيع الرحيل الأن فرؤيته لم تكتمل بعد فما زال القلب يخفق ويخفق منتظرا لهم متمنياً ومتلهفاً للمحة منهم ..
فهم أغلى عيون رأيتها ... عيون أبي .

اندهشت والدتي من تغير موقفي فلم يكن خفيا عليها استعجالي الرحيل.

لكني شاهدت بوجهها الرضى بعدما قررت الجلوس ، أخذت أُتابع الأولاد وهم يلعبون بالمكان وتخيلت نفسي بمكان والدي .. شعرت بالخجل من نفسي وتقصيري بحق والداي وقررت التغيير قليلا في حياتي على قدر استطاعتي حتى لا أغفل حقهما علي .

انتبهت من افكاري وأمي تناديني ثم ما لبثت أن بدأتُ بالضحك وأنا لا استطيع تمالك نفسي فحتى ثلاجة والدتي لم تسلم منهم ..

فقد كانت والدتي تصرخ بي قائلة :

إلحقي عيالك الي ما تربوش .. طلعوا اكياس السكر من التلاجة وفضوها كلها في الأرض .

*****

ما ذالك الظلام الذي نبت في الروح فجأة ؟

ومن أين له بمصدر ، أو كيف وجد له عيش في تلك الروح ؟

ما بال مجتمعنا اليوم كميدان معركة يعترك فيه الناس ويقتتلون ، لا يرحم فيه أحدٌ أحداً، ولا يلوى مقبل على مدبر !

إلى أين ذهبت الرحمة وغيرت عيشها وهدمت سكناها ، وتركت موطناً حائرا ، ضعيفا خاسراً ، أمام نزلات الزمن وفواجع الدروب ،

إلى أين ذهبت وتركت الصدور دونها ؟!

الجـــــــــزء الرابـــــع عشـــــــــر

عامان إلا شهر هو عمر ثلاثتهم الآن ، تصرفاهم وحركاهم صارت تعود كلها في النهاية للتدمير ، مؤخرا صارت عصبيتي جزء لا يتجزأ من اليوم .

اما اليوم فيجب علينا التزول جميعا لزيارة أهلي.. كم أكره هذه الزيارات وأبغض كثرة التزول .

يكفيني المكوث في المترل ومراعاة الأولاد والطبخ والمذاكرة وفي النهاية أدخل للنوم

لماذا يجب علي التزول ؟

دخلتُ لغرفة مريم فقد كنت أنهيت ملابسهم ووضعتهم جميعا بغرفة مريم لحين انتهاءي من ملابسي .

دخلت الغرفة لأرى الأربعة معا متجمعين بمكان واحد وأعين مريم تغرقها الدموع وهي تصرخ :

والله آسفة أنا قعدت امسح الدم وخلاص قربت تخف والله قربت تخف

وشهيقها يغطي على بعض الحروف لكنها ما زالت تعتذر وتعتذر،

فُجعت من المشهد ، اسرعت لمكافم ورأيت روْح وقدمه مغطاة بالدماء .

حمدت الله فمنظر مريم أنبئني أن مصيبة قد حدثت ..

حملت روْح وأسرعت لدورة المياه اغسل قدمه لأصل لمصدر الدماء وبالخلف مريم ما زالت تبكي وتعتذر في نفس الوقت .

لم أدري لماذا لم أرد عليها أو أهدئها ؟
كلما نظرت لها انفطر قلبي لمشهد بكاها وألمها الظاهر جليا على محياها .
لكني ما زلت لم أواسيها بكلمة !

جففت قدم روْح وتوصلت لمصدر الدماء وكان جرحا بسيطا بقدمه لا يتعدى سم .

أخرجتهم جميعا للصالة ومازالت مريم تبكي .. وما زال لساني يأبى التحدث إليها وتهدئتها ..

ألهذه الدرجة تملكتني القسوة ؟
كيف أتركها تبكي وتتحمل المسئولية بتلك الطريقة ؟

كان عقلي يطرح الكثير من الأسئلة المحيرة لنفسي ورد فعلي يصدمني في نفس الوقت .

تابعت ثورة غضبي وعصبيتي على الأولاد ووصل الأمر لزوجي نفسه حتى خشيت على نفسي من نفسي ورأيت التوتر قد غلب جميع تصرفاتي وحركاتي .

أذّن العشاء فصرخت بزوجي :
آدي العشا أذنت ولسة ما نزلناش .. امتى ها نروح وامتى ها نرجع .. بقى دا ينفع !!؟؟

ابتسم زوجي في وجهي مما أغاظني وأزعجني فالتفت للأولاد وجذبتهم من أيديهم ونزلت السلم والغضب يتملكني أكثر وأكثر مع كل درجة أهبطها .

وصلنا لثلث الطريق وارتفع صوت الإقامة عالية .. نظرت له بغيظ وأنا أقول :
آدي الاقامة كمان واديك ها تسيبني واقفة جنب المسجد انا والعيال .. طب ما محل العصير كان قبلينا ما وقفتناش هناك ليه وجيت انت هنا تصلي بدل ما نفضل واقفين في الشارع ؟

حاول زوجي السيطرة على نفسه .. رأيت الغضب وهو يرتسم على وجهه لكنه كتم كل هذا وأشار لي بالوقوف في مكان يقصده وأسرع بالدخول إلى المسجد .

وقفت بمكاني أندب حالي وأولادي ، وكلما تحرك أحدهم أسرعت لجذب يده فتؤلمه .
لكن هذا لم يمنع عني غضبي الذي لا أدري ما سببه ، بل ظللت على هذا الحال إلى أن ..

سمعت غوغاء شديدة من خلفي وكأن حرباً ضارية تحدث في حيّي
التفتت بحذر وحاولت تبين حقيقة الموقف ..

واتضحت أمامي الصورة أخيرا فمحل العصير الذي لِمتُ زوجي على عدم تركي فيه قد قامت به حربا طاحنة وتلاطمت اكوابه ببعضها كسليل سيوف لن تهنئ الا بإراقة دماء مشؤومة مثلها ومثل مُسِيلها .

انتفضت واضطربت في وقفتي ثم انزويت بجانب الطريق والاولاد بيدي وأنا أحمد الله على منّه عليّ بالبعد عن ذاك المكان .

بعد ما هدأتُ قليلا نظرت للأولاد وقد صمتوا جميعا .
لا أدري هل هو الخوف من الاصوات العالية أم مني أنا ؟

حاولت ضمهم إلي لكن شعور الفتور سيطر على جوارحي فلم ترضى يدي أن تمتد إليهم أو يخضع لساني فيسمعهم ما يبهجهم.

ومن جديد علا صوتٌ خلفي يهدد بالموت لسامعه ..
التفتُ إليه فإذا بفتى يبدوا في الخامسة عشر من عمره يمسك حجراً كبيرا ويرفعه أمام فتاة في العاشرة من عمرها .
وهو يصرخ بها :
أنا حذرتك ما تعمليش كدا ، لكن هاقول ايه غير انك مش اهل للإحسان يا لئيمة .. والله لاقتلك يااا..

صرختُ وأنا أسمع الكلمة الأخيرة للفتى ويده تتحرك باتجاه الفتاة
فالتفتَ اليّ وعيونه تكسوها القسوة والجبروت .

اسرعتُ بخطف الحجر من يده فصرخ بي معلنا اعتراضه على فعلتي

لكني نظرت له بحدة قائلة :
انت بتعمل ايه ؟
انت عاوزة تموتها يا بني ؟
انت مجنون ؟

فأجاب بصوت أجش لا يناسب فتى في عمره :
ايوة ها موتها وارتاح ، دي كلت أكلي وانا منعتها وحذرتها قبل كد ما تجيش ناحيته .

التفتُ جهة الفتاة فوجدها تجلس القرفصاء وقد وضعت رأسها بين ركبتيها اتقاء لهذا الحجر المسلط عليها وقد مُزقت ملابسها وظهر على جسدها العاري آثار سياط المستبدين في أجساد المستعبدين .

وقفت أمام مشهد الفتاة المحزن المؤثر وقفة المتألم للحال ومقصر الأفعال ، ثم تقدمت جهتها ووضعت يدي على عاتقها برفق ،
رفعت الفتاة رأسها مذعورة مرتاعة وهمت بالفرار من بين يدي وهي تصيح :
والله ما تموتني .. خلاص والله

فلم أزل أمسحها وأروضها حتى هدأ روعها وعاد إليها رشدها وعلمت انها ليست بين يدي إخيها الذي تخافه فنظرت إليّ نظرة لو أنها اتصلت بلسان ناطق وفم لحدَثت عما وراءها من لواعج الأحزان وكوامن الأشجان .

سقطت دمعاتي على حال الفتاة ونظرت لأخيها فوجدته وقد علا وجهه صفرة غريبة ونظر لأخته نظرة منكسرة دامعة وقال لها :
مش لو كنت قولتيلي قبل ما تاكليها كنت قسمتها بيني وبينك ونشبع احنا الاتنين ونسد جوعنا .. لكن دلوقتي كلها راحت وما استفدش الا واحد بس فينا .

ثم تهافت على جانب الطريق وانفجر باكياً ما تهدأ دموعه ولا يفتر نشيجه .
قمتُ إليه وقدمت إليه منديلا وقلت بصوت حاني :
كنت ها تضيع اختك علشان الاكل .. حد يعمل كدا برضه .. بدل ما تاخدها في حضنك وتحتويها .
اسمعني يا بني اختك مالهاش غيرك ان ما كنت انت ها تعطف عليها يبقى ها يفضلها مين ؟

ثم أعدت النظر إليه وهو ينتفض من جديد فأسرعت قائلة :
قولي بقى عاوز تاكل ايه والعزومة عليا .

خرج زوجي من المسجد ووجدني منشغلة البال عنه تماما ، حتى عصبيتي قد اختفت لكن حل محلها عدم تركيزي
اااه لو يدري ما يدور برأسي .

ظللت طوال الطريق أتابع الأربعة بنظري بين ضحكاتهم ونظراتهم التي يغلبها الفضول حول كل شئ وأي شئ .

فكرت بمريم وفعلي معها .. تضايقت من نفسي كثيرا لكن تأنيب ضميري لم يخرجني مما أنا فيه .

تساءلت هل وصل حنوي بالغريب أكثر من ابنتي ؟
هل تملكني الجنون لأصل لهذه المرحلة ؟
ماذا يحدث لي ؟

وصلنا وجهتنا أخيرا وصعدت عند والدتي وراقبتهم بعيناي
كانوا كالفريق مجتمعين مرتبطين
كلما تحرك أحدهم تبعه الباقون .

ظللت أتابع وأتابع .. يلتفتون إلي فيبتسموا لكن وجهي لم يختلف عن ما كان .

شعرت بحزنهم وهو يرتسم على وجوههم لصدي عنهم لكن ما لبثت أن قمت من مكاني ولبست حجابي ونزلت الشارع ..
عدت بعدها بعشر دقائق لم أُحاول البحث عن أولادي أو رؤيتهم ، ودخلت لدورة المياه .

خرجت من دورة المياه بعد خمس دقائق وقد شحب وجهي وانتفضت أوصالي .
أريد أن أبكي .. لا بل أريد أن أنتحب .

جلست على الكرسي وضممت جسدي بيدي وانهمرت دموعي كسيل حُبس من فترة طويلة .

جلست والدتي بجانبي واسرع أولادي أيضا بالمجئ إلي وكأنهم قد شعروا بي .

ظلت والدتي تحدثني وتسئلني وبكل ما أوتيت من قوة وعزم تحثني على الإفصاح عن ما بداخلي .

لكني كنت مغيبة عن الواقع تماما وكأن الألوان حولي باهتة والأصوات مهتاجة وصريخ مولود يعلو في الخلف لا أدري موضعه لكنه يفزعني .
تمنيت أن اخرج من هذا الكابوس الذي تملكني بواقعي وخيالي لكن كيف أخرج منه وأنا السبب فيه .

نهضت أمي من جانبي وقامت بالنداء على زوجي وأبي وهي تقول :
انا مش عارفة مالها من ساعة ما جت وهي مش طبيعية وبعدين نزلت الشارع وطلعت بسرعة دخلت الحمام وخرجت .. ومن ساعتها وهي قاعدة القاعدة دي .

علا صريخ التوأم وكأن الفزع قد وجد طريقه لقلوبهم من مشهدي

أخذ والدي والدتي معه وتركوني وزوجي لعله يصل لما في قلبي .

زوجي :
مالك .. في ايه ؟
قوليلي ايه الي مضايقك ؟

لكن صوته كان يصل إلي كهمس في صحراء لا أدري من القائل وماذا يقول .
أعاد من جديد على نفس الكلمات وبدأت تتضح في أذني
تمنيت لو أن الصوت ماديا فأمسكه لأخرج من الكابوس الذي أنا فيه لكنه لن يكون أبدا كذالك .

أعاد علي السؤال مرة واثنتين وثلاث وخمسة وعشرة حتى افقتُ قليلا من صدمتي والتفتُ إليه ونظرت بعيني زوجي ثم أخرجت ما في قلبي بكلمتين اثنتين اسقطتهم عليه :

أنااااا ..... حـــامل

*****

منذ دقائق جلست أبكي لا أدري لماذا ؟

ولا أدري حتى ما حاجتي لهذا ؟

بكيت وانتحبت ، بل تشنجت وصرخت ،دموع خرجت من طيات القلب ،حملت معها أنين محتد ،صارت تترل على وجنتي ، ومنها لشفتي ،تذوقتها طعمها مر ،وصريخها يكاد يصم ،مسحتها فعاودت الترول ،تركتها فكانت كالسيول ..

خاطبتها ما قصتك ولماذا الهطول ؟

تمنيت منها اجابة أو لمحة عن المكنون ، لكن كان الصمت اجابتي ، والدمعات رفيقتي ، وأنين قلبي مؤنسي ، وزفرات روحي تواسني

الجـــــــــــزء الخـــــــــامس عشـــــــــــر

أنا

حـــام

ل

كانت هذه آخر الكلمات التي دارت بيني وبين زوجي لمدة نصف ساعة ، ظل خلالها
شارد اللب ، ذاهل العقل ، متعسر التفكير ، متغيب التدبير ..
أفاق بعدها على لمستي ليده ، فنظر لي وابتسم ..

ثم قال :
الحمد لله على ما رزق .. بس ازاي ما انت بتاخدي موانع الحمل ؟

فنطقت والدموع تغلب عيني وتملأ نفسي وتؤجج همي :
والله ما عارفة أنا بقالي يومين قلقانة وحاسة بحاجة مش طبيعية .. لكن ما كان عمري اتخيل إني أطلع حامل .

نظر إلي بابتسامة وأخفى الكثير من ما في نفسه بنفسه لكني أعلمه وأفهمه ، بل بيدي أن أدري ما برأسه قبل أن يخطر بباله أو ينطقه لسانه .

التفتَ للأولاد وكانت مريم قد انسدحت على سرير جدها ونامت ، وظل وحوشي الثلاثة يعيثون في المنزل فسادا ، ما بين التدمير والتكسير .

ثم عاد نظره إلى وقال :
تحبي تقعدي هنا يومين نفسيتك ترتاح شوية ؟

لم يكد ينطق سؤاله حتى ارتاح قلبي فأجبته :
ياريت والله لأني فعلا مش عاوزة ارجع البيت حاليا وبالمرة اروح بكرة للدكتورة اشوف ايه حكاية الحمل .

وانتهى اليوم على ذالك وعاد زوجي للمترل وبِتُ أنا عند والدي .

أما من جهة أخرى .. استقبلت والدتي الخبر بصدمة عظيمة ظهرت جلية على ملامحها الحنونة .. وكأنني أرى ما بين قسمات وجهها تكشير قد ظهر وكلمات ستخرج على طرف لسانها .. لكن لا أدري ما أوقفها ؟
لربما هي في نفسهاتعلم أنني لم أكن لأفعل أمر كهذا بنفسي خاصة مع حالة الأولاد وتعبهم .

جاء اليوم الثاني واستيقظت على أصوات بكاء ثلاثتهم وفي نفس الوقت ضحك والدي ووالدتي .

قمت فزعة لأرى هذا المشهد العجيب ، وما إن رأوني حتى ارتموا ثلاثتهم في أحضاني وجسدهم ينتفض من البكاء ، كأنهم قد أُذيقوا من العذاب ما لم يتحمله جسدهم الصغير .

التفت لوالدتي متسائلة عن ما أصابهم ، فضحكت وهي تقص علي :
يا بنتي صحينا من النوم لاقينا الثلاثة قاعدين في الصالة عمالين يشربوا ميا ويمشوها بينهم بالدور قولنا كويس ما شاء الله محترمين اهه.. بعد كدا فتح ابوك الباب علشان يهوي الشقة وبمجرد ما فتحناه الثلاثة جريوا على برا ولموا كل الجزم في ايديهم وبقى واحد

يشيل من على الارض والتاني ياخد منه والثالث يرمي في وسط البيت .. ابوك شاف كدا راح قايل لريْحان " ينفع كدا !! " لان هو الي كان بيرمي في وسط البيت ولسة ها يزعق للاتنين التانيين لقى الثلاثة حطوا ايديهم على عنيهم وهاتك يا عياط واحنا لا كلمناهم ولا جينا ناحيتهم اول ما شافوك جريوا عليك تقوليش ضربناهم . عيال ممثلة آل يعني بيحسوا اوي .

لم تكد امي تنهي حديثها حتى بدأت بالضحك أنا الأخرى وأنا أنظر لهم وأعينهم ملآنة بالدموع كأنهم بالفعل قد عُذبوا على يد والدي .

ظللت أضحك وأضحك وتعالى صوتي بالضحك وتوقف أبي وأمي عن الضحك وهم ينظرون إلي ونظر التوأم إلي باستنكار على ضحكي وهم يبكون .. لكني مازلت أضحك وأضحك .

ضحكت حتى أدمعت عيناي وتبللت شفتاي وبدأ جسدي ينتفض ثم ما لبث الضحك أن انقلب صريخ وبكاء .

لم أشعر بنفسي او ما حولي كل ما رأيته أمامي هو أمر لم أعد أتحمله ولا أدري من أين لي بطاقة به
ظل بكائي يشتد بكيت من كل قلبي، تمنيت لو يتوقف الزمن فأعيد حساباتي ، لكن الزمن دائما ما يسير ويتركني أتحسر على حالي .

تذكرت إحساسا لامس قلبي من فترة قريبة .. أن الصعب قد فات والراحة في كل ما هو آت ، لكن ما برأسي لم ولن يكن إلا مجرد حلم ولا يزيد عن أمنية .

أمنية كأنها نجم تلألأ في سماء الأماني ثم هوى ، وغصن أزهر في ساعات المنى ساعة ثم ذوى ..

وقدح من البللور لم تكد تلمسه الشفاه حتى انكسر ، وعقد من اللؤلؤ لم ينتظم في سمطه حتى انتثر .

أفقتُ على فزعة أبي وأمي علي وتهدأتهم لي وتربيتهم على ظهري فهدأت قليلا وصارت دمعاتي عبارة عن خيط شفاف يسير على وجهي بدون اصدارصوت أو ابداء حركة .

والدتي :

مالك يا بنتي في إيه بس قوليلي وما تكتميش في نفسك .

سكتُ قليلا وأنا أنقل النظر بينها وبين والدي ثم مسحت عيوني بأكمام جلبابي كطفل صغير .

وأنا أسئلها :

انت عارفة انا كنت بعمل ايه أول سنة مع العيال علشان أفضل صاحية بالأسبوع كامل من غير ما أحصلي خمس ساعات نوم بالمجمل ومن غير ما كون قادرة اقوم اعملي كوباية قهوة حتى تفوقني ؟

استغربت والدتي وأظنها تفاجئت أن هذا كان حالي ..قالت :

لا يا بنتي .. كنت بتعملي ايه ؟

أجبتها وقدصعُبَ علي حالي من تذكري للأمر :

كنت بافتح اكياس النسكافية واكله بالملعقة من كتر ما كنت مش لاقية قوة تخليني اقدر اتحرك من مكاني..

كنت باكل النسكافيه مش بشربه من كتر ما انا مش لاقية وقت اعمل حاجة لنفسي .

قمت من مكاني واتجهت لدورة المياه وغسلت وجهي وتوضأت وصليت ودعوت الله أن يقدر لي الخير حيث كان ويرزقني الرضا به .

اتصلت بالدكتورة لأحدد موعد لزيارتها لكنها أجلتني لليوم الثاني فاتصلت بطبيب عيون وطبيب أذن وحجزت عند الإثنين فعيني لا أرى بها جيدا وأذني أسمع بها أصوات تؤلمني .

جاء موعد طبيب العيون فتركت الاولاد ونزلت وبعد الكشف سألني ان كنت اعاني من نوع من انواع الأنيميا لكني أجبته بلا .

فاستطرد قائلا :

يا مدام عينيك ما شاء الله النظر ستة على ستة وقاع العين سليم الوضع الي انت فيه نقص فيتامين الخاص بالنظر..

بالعربي حضرتك عندك أنيميا حادة في عينك .

استغربت كلماته وقلت :

معلش بس انا اول مرة اسمع عن أنيميا نظر يعني محتاجة أكل جزر مثلا يعني ولا ايه ؟

الدكتور :

لا يا مدام حضرتك عندك أنيميا محتاجة فيتامينات خاصة أنا بس الي متعجبله أول مرة ألاقي حد نظره ستة على ستة وعنده أنيميا في عينيه بالمنظر دا .. هو حضرتك ماشية على نظام غذائي معين أو عاملة ريجيم بقالك سنين مثلا ؟

أنا :

لا يا دكتور والله ولا حاجة من دول .

الدكتور :

عندك اولاد ؟

انا :

ايوة

الدكتور :

بتقعدي تذاكريلهم كتير وبترهقي نفسك معاهم ؟

انا :

لا يا دكتور انا لسة ما حدش دخل المدرسة عندي .. بنتي الكبيرة ها تدخل السنة دي والثلاثة التانين لسة مكملين السنتين

الدكتور :

ثلاثة ايه هو حضرتك عندك توأم ثلاثي ؟

أنا :

أيوة .. ليه في مشكلة ؟

الدكتور :

أبدا بس كدا عرفنا السبب حضرتك لما حملتي بتوأمك الثلاثي جسمك ضعف جدا لأنهم أخدوا من فيتاميناتك انت .. وطبعا انت في فترة الحمل برضه اكلتك ضعيفة فماقدرتيش تعوضي الي هما بيسحبوه منك بعد كدا جت الولادة وبعدها الرضاعة وفات سنتين اهه جسمك حاليا بدأ يتداعي لأنه لحد دلوقتي مش قادر يعوض الفيتامينات الي اتسحبت منك الي انت اساسا كونتيها في جسمك في عمرك كله اتسحبت في خلال تسعة شهور بتوع الحمل .. دلوقتي بعد سنتين بدأت تعاني أعراض الضعف لأنها بتزيد مش بتقل .
انا دلوقتي هاكتبلك فيتامينات مهمة جدا لازم تاخديها في مواعيدها علشان تساعدك في موضوع ضعف النظر دا ونصيحة ليكِ كل ما تشعري بتعب في حاجة تروحي تكشفي لأن واضح ان الحمل أثر على حاجات كتير في جسمك .

خرجت من عند الطبيب وشعرت بالأرض كأنها تطوى تحت قدمي ، أسندت جسدي بسرعة على أحد الكراسي وجلست لألتقط أنفاسي وكلما فكرت بكلام الطبيب أبعدت عن رأسي كل ما يترتب على هذا الأمر .

دقائق ثم قمت من مكاني واتصلت بوالدتي اطمئن على حال الأولاد وأخبرتها أني أنهيت زيارة طبيب العيون وسأتجه لطبيب الأذن الأن .

أغلقت الهاتف واتجهت بطريقي .. دقائق أيضا وكنت قد وصلت عند الطبيب وكان دوري في الأول ودون إطالة تشابهت كلمات طيبب العيون وطبيب الأذن في كل كلمة اختلافهم الوحيد هو ان الأخير أعطاني فيتامينات تخص السمع هذه المرة .

عدت بطريقي وأنا اتفكر بحالي واستغرب كمّ الابتلاء الذي يصببني ثم ما لبثت أن حمدت الله فكل ما في الأمر أنني سأحتاج لبعض الأدوية من الجيد أن الأمر لم يتعدى هذا .

وصلت للمترل وقصصت كل شئ على أمي التي بدورها اعتلى وجهها أمارات الحزن من أجلي ، وهي تسئلني :

أومال لو الدكاترة عرفوا انك حامل كانوا ها يقولوا ايه ؟

طيبت خاطرها قائلة :

والله يا ماما الحمد لله على كل حال كان ممكن يبقى الوضع أسوء من كدا وبعدين ما دا طبيعي اومال الأم فضلها كبير ليه .

انت عارفة انا حاسة ان الحمل الجديد ممكن يكون خير فعلا من عند ربنا والأولاد طبعا من غير ما ننكر رزق وفضل من عند الله .. انا بس خايفة.. لا يطلعوا توأم برضه تبقى حاجة فل على الآخر.

الحمد لله برضه العيال بقى عندهم سنتين دلوقتي .. كبروا ما شاء الله واخلاقهم اتحسنت شوية .

ضحكت والدتي من كلماتي ، لكن كلماتي لم تكن لها بل كانت لي فقد هدأت نفسي بنفسي وبدأت أرضى بما قسمه الله لي .

افقت على سؤالها :

هما العيال فين ؟

أنا :

نعم !! انت بتسأليني ؟

. هو انا مش لسة جاية وبحكيلك على الي حصل .

والدتي :

ايوة هما كانوا في الأوضة عند الثلاجة بس خلاص خلاص هي فاضية ما فيهاش حاجة ماتقلقيش .

سئلتها بقلق :

هو انت بطلتي تحطي السكر في الثلاجة ولا لأ ؟

نظرت إلي وقد اتسعت حدقتا عيناها وهي تصرخ بي :

يا هـــــــــــــــــــــــــــــووووووووووووي

وأسرعنا إلى الغرفة ووجدنا ثلاثتهم وقد اتخذوا من الأرض فراشا ومن السكر ملحفا وغطاءا .

نظرت لأمي وهي تتمنى لو اتركها عليهم فتخرج ما في نفسها ، لكن لأول مرة من فترة طويلة وجدت نفسي أضحك بشدة عليهم فمهما كبروا لن يتغيروا ومهما ظننت بهم وبأخلاقهم سيظلوا دائما وأبدا

وحوشي الصغار .

*****

كم أريد أن أقتله ، أتمنى لو أجرب هذه المتعة بسفك دماءه ، فما فعله لا يستحق أقل من ذالك ، بل القتل بأشع الطرق هو جزاءه ...

أحسبني وبعد تفكـــــــــــــــيييير سأمهله ، وأعطيه من المغفرة ما أستطيع ، أو أدع الأيام تمن علي رأسي بعقاب يطفئ ناري، دون القتل فهو على أي حال " زوجي " ولا يصح قتله

الجـــــــــــزء الســـــــــــــادس عشـــــــــر

منذ أيام وقفتُ أمام المرآة أراقب اختلافا كبيرا قد ملأ تقسمات وجهي ، أعدت كلمات طبيبتي في رأسي ثانية وهي تبارك لي على الحمل وتخبرني ان حملي هذه المرة سيكون بتوأم .

.

ابتسمت .. كيف هذا، لا أدري ؟

سعدت بالخبر مع أنه أحزنني في البداية تحسست بطني فشعرت بقشعريرة قد ملكتني ، اعدت النظر في المرآة فكأن جبيني يتلألأ كتلؤلؤ الكوكب في جنح ليل مبرد ، وافتر ثغري عن الأنوار افترار الأكمام عن الأزهار .

أما الآن وقفت أمام المرآة ورأيت الكوكب المضئ يختفي خلف آلام وإرهاق ملأ فتحات النفس وشواهقها .

وبين جنبيِّ همّا يعتلج ، وقلبا يدب فيه اليأس دبيب الآجال في الأعمار ، وكبدا مقروحا لو عُرضت في سوق الهموم والأحزان ، ما وجدت من يبتاعها ولو بأبخس الأثمان .

خرجت من دورة المياه بعد ما مسحت عني دمعات قد رسمت طريقا متواصلا على وجهي واخذت طريقي لسريري فقد وجب علي الراحة بعد ما مررت به .

وجدت والدتي تحدثني بحنو وتسئلني إلى متى الحزن ؟

لكن كيف اخبرها واوصل لها امرا يهُم النفس ويؤلمها فكم من مرة عجزت عن رؤية جمال الأمر وخصوصيته كما يعجز المرء عن رؤية الهباء فيتريث ريثما تمج الشمس خطوطها من نافذة الغرفة فإذا بلعاب الشمس وقد صار مائج وضّاء يروح ويغدو رواح السانحات ، وغدو البارحات .

عجزت عن رؤية الخير بالحمل خاصة مع وجود أربعة أطفال عندي ، لكن فتحت نافذة صغيرة وهي الرضا بما قدره الله .. وبعد ما أرتأيت وارتضيت كل خير سيجئ منه ..

ذهب عني حملي وبقى لي رحما ضعيفا لا يقوى على حمل نطفة فما بالك بأجنة .

ظللت صامتة بألم متماسكة بحزن يسكنني.. فلم يكتمل الحمل أسبوعا حتى رحل من بين جنباتي وصار رحمي خاوياً فارغا ً.

تذكرت كلمات الطبيبة مراروتكرارا :

الرحم محتاج فترة على ما يسترد عافيته من ساعة آخر حمل في التوأم الثلاثي .

أفقت على لمسة والدتي وهي تمسح دمعات سقطن على وجهي دونما أشعر بهم لكن حُرقتهم ظلت باقية .

مرّ يومان استردت فيهم عافيتي وارتاحت نفسي لما آلت إليه الأمور وعدت لمترلي بعد مرور أسبوعين كاملين .

دخلت للمترل شعرت بوضع غير طبيعي التفت لزوجي :

الشقة مش مريحاني .. فيها حاجة غريبة .. ريحة غريبة ... مش عارفة ؟

ابتسم زوجي لكلامي وقال :
ها قولك انا اصبري عليا .. دلوقتي بعد ما انت روحتي عند امك بيومين انا كنت عاوز غيارات نضيفة .. كنت هاعمل ايه
اجيبلك هدومي تغسيليهالي عند امك ؟

ضحكت على كلامه وأشرت برأسي أن .. لا طبعا ... فأكمل :
فعملت ايه انا بقى .. غسلت الغيارات ووالله كنت تعبان شوية فسيبت الغسالة تملى الميا ..

انفتحت عيناي بذهول وأنا أتخيل تكملة الحكاية .. لكنه أشار لي أن اهدأ وأكمل :
هما كلهم على بعض ثلث ساعة الي نمتها ووالله ما كنت واخد بالي ولا متوقع ان دا حيحصل .. المهم صحيت بعد ثلث ساعة لاقيت الميا وصلت الشقة كلها بدون استثناء وانت كنت شايلة السجاجيد فدا سهل عليا الوضع .. روحت انا ماسح الشقة كلها واديها جت مصلحة هههههه ان الشقة اتمسحت .

نظرت له بغيظ وأنا أقول :
مصلحة
مصلحة
مصلحة ايه بس .... كانت ممكن تبوظ العفش كله .. دا ان ما كانت بوظته بالفعل وبعدين انا داخلة شامة ريحة مش طبيعية مش بعيد يكون الخشب اتأثر فعلا بالميا .

نظر لي زوجي باستنكار ووضع يده على يدي قائلا :

اهدي بس انت ما جراش حاجة من دول لاني قمت مسحت الشقة كلها بسرعة وما فيش حاجة حصلت للخشب وبعدين بصي للناحية المشرقة وفرت عليك تنضيف الشقة ..
غلطان أنا ؟

ضحكت من تبريره للموقف وسكت عن الكلام كي لا أزيد عليه وينقلب الأمر بوجهي في النهاية .

لكن سئلته :
السجاجيد طيب رجعت ولا لسة لان كدا المغسلة اتأخرت اوي

أجاب :
من زمان وانا شيلتها .

مر اليوم بصورة طبيعية لكن ما بين كل فترة وفترة تزعجني الرائحة من جديد وأنا لا أستطيع الوصول لمصدرها .

فات يومان وقد شُغِلت بالاولاد وبعض الصفات التي ظهرت عليهم وأسعدتني في ذات الوقت .

فقد بدأو التعارف على بعض بصورة ثابتة فكلما سألت أحدهم على اسمه يجيبني باسم واحد منهم .
فريتال تدري اسمها بدون نقاش لكن الولدان كلما سألتهم عن أسمائهم ... أجابوا بالعكس.. ضحكت من موقف الصبيان .

فيجي يظن نفسه ريْحان وريْحان يظن نفسه روْح ولا يستجيب أحدهم لمسماه الأساسي وكل منهم يرد بديلا لأخوه ويترعج لو طلبت منه التقيد بأسمه وظهرت علامات التمرد فصار الاثنان يغضبون مني ويغادرون المكان ويدخلون غرفتهم وكأنني المخطئة .

مرت الايام حتى وجدت حلا وحيدا لا ثاني له لعنادهم هو الاهمال .. عند غضبهم اتركهم بدون اي رد فعل او محاولة مصالحتهم وبعد مرور اسبوع على خطتي جاءت النتيجة بالنجاح واستسلم الاثنان لرغبتي وكفّا عن الغضب ومغادرة المكان والاستجابة لصوتي عند النداء لكن ما زال الاثنان يظنان اساميهم بالعكس ..

وهذا ما لم استطع تغييره .

مرضت مريم قليلا وكانت تنام بكثرة فأغلقت عليها غرفتها وتركتها تنام لأربع .. ساعات متواصلة ريثما يهدأ جسدها ، وعندما ذهبت لايقاظها وفتحت عليها غرفتها .. هبّت بوجهي رائحة ..

تلك الرائحة التي لطالما أرقّتني من حوالي أسبوع ولم تذهب إلا بعدما هويت الشقة بأكملها .

تفاجئت من الرائحة التي عادت من جديد ، ظللت أبحث بعيني في الغرفة ولا أجد مصدرا لها ناديت زوجي وقد كان نائما من ساعتين مغلقا باب الغرفة عليه .

جاء على صوتي لكنه لم يشم شيئا وخرج من الغرفة وهو يردد :

انتم كدا دايما .. الستات تشم الحاجة اللي مش موجودة أصلا .

خرج من الغرفة لكني ما زلت أشم الرائحة وقعت عيناي أخيرا على سريريّ الغرفة الكبار ووقع قلبي بأقصى أطرافي وأنا لا أكاد استوعب الأمر.

أسرعت إلى السرير الأول ورفعت الاغطية والمرتبة ثم ألواح الخشب وهالني ما رأيت طبقات من العفن قد غطت الملابس الشتوية التي تخصني انا والاولاد وأبوهم .

ذهبت للسرير الثاني ورفعت حاجياته عنه ايضا وتكررت الرؤية ..

عفن ابيض اللون تكون على الملابس وقد كنت وضعتها داخل حقائب سفر لكن الحقائب لم تمنع المياه .. فتحت الحقائب ووجدت الملابس ما زالت مبللولة ..

مبللولة وقد مر عليها ثلاثة أسابيع .

اما ما جف منها فملمسه صار كجفاف الورق امسكت بعضهم وكأن القماشة تهتكت فما لبثت ان جذبتها حتى انهارت بين يدي وانقسمت لقطعتين .

قلّبت في الملابس ووجدت ملابس الاولاد وأغلبها تميل للون الأبيض وتحوي أزرار وسوست وقد غطاها الصدأ هي وكل ما يجاورها .

أما الملابس ذات الألوان الداكنة فقد غطت كل ما يجاورها أيضا بفيض بعض من ألوانها .

نظرت للملابس وحالة من القهر ملكتني .. شعرت كأن ظلماً شديدا قد وقع علي .

زحفت بجسدي لخارج الغرفة وعيناي تتلهفان لرؤيته .. كي أُريه ما فعله تهاونه بي .

أقبلت على غرفته غير منتبهة للأولاد وأفاعيلهم وفتحت الباب وأنا أصرخ :
هي دي الميا الي انت لحقتهاااااااا !!

لكن كلماتي توقفت من جديد عند .... الرائحة

خرجت من الغرفة ودخلت ثانية .. نفس الرائحة هنا لكن كيف فالملابس الشتوية بغرفة مريم فقط .. اذا ما سبب الرائحة.؟
نظرت له وقد تجمعت بعض الأفكار برأسي وبرز أحدهم .. خشيت أن أطرح السؤال فتتجسد أمامي حقيقة حدوثه
نظرت له بصمت .. حتى دمعاتي توقفت .. لم أعد أجد لها معنى أمام ما أواجهه .

استجمعت شجاعتي وسألته :
هي السجاجيد رجعت امتى من المغسلة ؟

زوجي :
بعد ما مشيتي بيوم .. ليه ؟

سئلته وأنا ألتقط أنفاسي بصعوبة :
طب ما فرشتهاش ليه ؟

زوجي :
قلت ها تفرشيها على الشتا زي ما بتعملي دايما

سئلته من جديد وقد بدأت الأرض تميد تحت قدمي :
ممكن اعرف شايلهم فين لو سمحت ؟

زوجي وقد تحير من أسئلتي وطريقتي التي لا يجد لها معنى :
السجاجيد تحت السريـــر

لم يكمل الكلمة حتى صرخت بعظم قوتي وأنا أجذب أغطية السرير وأضعها على الأرض .. وأرفع المرتبة ... التي تفوقني طولا وعرضا
..اندهش زوجي من تصرفي سئلني ماذا يحدث ؟

لكني لم أرد فلم يجد بديلا لمساعدتي برفع المرتبة .. ولم يكد يضعها جانبا ويلتفت إلي حتى وجدني وقد وقفت بلا حراك أمام السرير

وقفتُ أمام السرير وقد رُصِّ أمامي خمس سجادات وقد تغطوا جميعا بعفن أخضر ..
نظرت له وقد امتلئت عيناي بالدموع
وقلت بألم :
ثلث ساعة نمتها .. الله يسامحك

وغادرت الغرفة واتجهت لغرفة مريم وأغلقت الباب ورائي وجلست أبكي حالي وأندب شاني .

مرّ عليَّ بعض الوقت حتى سمعت طرقات بالباب .. لم أفتح
أعاد الطرق والمناداة لكني لم أرد .

غاب بعض الوقت وعاد وقد ادخل ورقة تحت الباب ، التفتُ بجانبي وأمسكتها ووجدت بها

....

ما بالك تبكين حالك وتندبين أحوالك ، فهل اتفقتي مع الدهر أن لا يغضبك أبدا ؟
أم أخذتي العهود والمواثيق مع البلاء أن لا يزورك يوما ؟
أم أظنك أرتأيت أن الكون يسير تحت أقدامك والسماء تتشرق بجوارك وتمطر مع أحزانك ؟

....

أخطئتُ وأعلم ذالك تمام العلم .. لكن قلبك يتسع لخطئي وأخطاء كثيرة بعد
فدعينا ننسى ما فات وأعدك بـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ
أني لن أغسل ثانية

ضحكت من قلبي على تصرفه فهذه الكلمات ليست له بل لي
كتبتها بقلمي وها هو قد استخدمها ضدي ووضعني أمام نفسي وكلماتي تشهد على فكري .

فتحت الباب ووجدته وقد افترش الأرض هو وأولاده وبمجرد أن رآني ابتسم .

فنظرت له وابتسمت ايضا وأنا أقول :
والله تيجي ناحية الغسالة والا الاقيك بتبوصيلها حتى .. هالم هدومي وامشي واسيبك مع شلة الأُنس عيالك تخبطوا كلكم راسكم في الحيط .

تعالت ضحكات مريم على كلماتي ونظر لي زوجي ببعض الغضب ثم قال :

انا ها ساعدك والله قوليلي بس عايزة ايه .. ولو حبيتي ترمي الهدوم الي مش نافعة ارميها وما تتعبيش نفسك في غسيلها .

أنا :

ما ينفعش كدا يبقى هرمي الهدوم كلها .. لازم اجرب واشوف ايه الي ينفع وايه الي ما ينفعش .. روح انت بقى دلوقتي ارفعلي شنط الهدوم في المطبخ وحوطها فوق بعض وكل يوم هاخد شنطة اغسلها ولما تنشف اغسل الي بعدها .

مرت عشر دقائق كنت حينها قد غيرت للأولاد ملابسهم فقد استغلوا انشغالي وفتحوا برطمان الصلصة ولونوا به وجوههم وملابسهم ومريم ابنتي الكبيرة .. العاقلة .. الواعية ...... اشتركت معهم في الجريمة .

دخلت المطبخ ورأيت الحقائب عبارة عن كومتان قد وصلتا للسقف وبكل كومة خمس حقائب ، التفت خلفي فوجدته يقف بأسى واضح على وجهه .

غادرت المطبخ محاولة تناسي مشهد الملابس ثم طلبت منه اعادة السجاجيد للمغسلة مرة ثانية ، وبدأت رحلة جديدة من الشقاء لا أدري متى ستنتهي او إلى أين ستأخذني .

*****

" الله المستعان "

كلمتان دائما كنت ألفظهما لأتحمل بهما صنوف الآلام ، وكأنني أجد في نفسي اللذة بنطقهما والغبطة بقربهما ، ويكأن الرضا دربا من دروب معانيهما ، فصار معنى لحياتي وصبرا على أرزاءي،

فيتملكني شعور ان الله أكرمني وخصّني بما لم ينعم به المنعّمون ، حتى ظننت أن الله سبحانه وتعالى قد وفقني لسر من أسراره ، والتقرب لجلاله كما لم يكتب للسعداء والمجدِّين من عباده .

الجـــــــــــزء الســـــــــابع عشـــــــــــــــر

ما نفعني من ذاكرتي وبرز دائما بعقلي غير قولا واحدا ، ما أظنني تركته يوما في ناحية من نواحي الدروب او في واصلة من وصلات الخطوب .

فما فات من ضعف ذاكرتي أو التوائها علي وعجزي على التمسك بكثير من الخيوط والروابط إلا ذِكر ليّن كل عسير ويسر لي كل تقدير .

وهذا ما فعلته عندما رأيت تلك الملابس وقد ملئت أركان المطبخ فتحت الغسالة وبدأت بملئها وأنا أردد لا حول ولا قوة إلا بالله .

وعندما بدأت بأول مراحل الغسيل لفظتها .. تلكم الكلمتان اللتان سكنتا قلبي وصارتا أقرب إلى لساني من اسمي نفسه ... الله المستعان .

بدأت بالعمل وكأن الطاقة التي وجدت بداخلي تستزيد نفسها ، والإعانة تصلني دون سؤالها .

سئلتني أختي الصغرى قبلا عن ما يدفعني للصبر على وحوشي الثلاث ؟

فأجبتها أن الصبر رزق أكرمني به الله وانه كما رزقني بثلاثتهم فسيرزقني بالإعانة عليهم ما دمت ألجئ إليه وأدعوه في السّراء والضراء .

فالدعاء هو مفتاح القلوب وسر نقاء الحياة ، يمهد سبلها ، ويزلل طرقها ، ويستدن نافرها ، ويجمع شاردها ، وينظم لآلئها

شهرا كاملا مر ولم أنهي إلا ثلث الملابس .

قررت حينها انزال التوأم للحضانة وبعد الإتفاق والتحضير جاء أول يوم .

ذهبت بهم للحضانة التي لا تبعد عن باب عمارتنا أكثر من عشر خطوات ، ملئت حقائبهم بكل ما يعشقونه من حلوياتهم وطعامهم
، وصّيت عليهم مسئولة الحضانة وكم أدهشتني سعادتها بوجودهم واحتفالها بحضورهم .

تركتهم والدمع يتجسد بعيني وصوت صراخهم عليّ يمزق جنبات قلبي ، لكن وجب عليَّ التمسك بموقفي ، ودعتهم من بعيد وكأنني أعانق وجوههم بعيناي وأتلمس أيديهم وأجسادهم بروحي ، تمالكت نفسي وغادرت المكان .

أخذت مريم لمدرستها فقد التحقت بالصف الأول الإبتدائي .

منذ فترة طويلة كان اخوتها محور اهتمامي لكن الآن كانت هي الوحيدة بيدي ، تمسك بقبضتها أصابعي ..
أشعر برجفتها .. حيرتها .. ثم ابتسامتها ..
فزميلات الحضانة هنا ايضا معها في نفس الصف .

تركت يدي وأشارت لهم بيدها ثم التفتت إلي وسئلتني :

أروح يا ماما ؟

غلبتني عبرات عيني ، وتهدج صوتي ، نظرت حولي ..
جميع الأمهات يقفن بجانبي والمكان هادئ نوعا ما ، شعرت بأني لو تكلمت سيضحكن على صوت بكائي .

فنظرت بعين أميرتي ومسحت على رأسها وأنا أُشير برأسي أن .. نعم .

فرفعت يدها إلى يدي التي على رأسها وأنزلتها أمام وجهها ثم قبلتها وتركتني وذهبت .

تحجرت حينها الدمعات بعيني ، وكأنني أرى فتاة أخرى غير ابنتي ، فمنذ فترة طويلة كانت تقبل يدي لكن توقفت عندما لم تعد تفارقني او تبعد عني .

اما الآن في اول يوم دراسي لها تذكرت عملا أسعدني وأبهجني ، بل جعلني كطائر يطير بجناحيه بين طرقات السحاب وأبواب الجنان .

تابعتها ورأيتها وهي تتخذ طريقها لطابور فصلها وحقيبتها تنتفض على ظهرها وهي تجري لتلحق أول الصف وتقف أمام زميلاتها ، ضحكت وبكيت فقد كبرت أميرتي وصارت طالبة ، ظلّت تنظر إليّ وتشير لي بيدها وكأنها تشعر بالفخر لوجودي معها في هذا اليوم المهم بحياتها ، وفي عينيها بريق يلمع من بعيد يجذبني لاحتضانها وعدم افلاتها .

دقائق ومرت من أمامي متجهة لمكان فصلها مع زميلاتها ، أشرت لها بيدي وابتسمت هي لي وكأنها تحاول أن تطمئنني على حالها .

خرجت من مدرستها وخطواتي تؤلمني مع كل حركة أتحركها ، أخرجت هاتفي واتصلت بمسئولة الحضانة وسئلتها ان كنت آتي لأصطحب الأطفال فلا بد أنهم قد عاثوا بالمكان فسادا .

لكنها فاجئتني أنهم يلعبون معا بحجرة الألعاب ويبدوا انهم مستمتعون بوقتهم .

وقبل أن تنهي المكالمة معي قالت :
يا مدام روحي نامي انت حاليا واخدة افراااج

أنهيت المكالمة وصعدت للمنزل ، نظرت بالساعة ..
خمس ساعات لحين موعد اصطحابهم ، حاولت النوم فلم أستطع ، حاولت ترتيب المنزل فلم أستطع ، مهما حاولت تملكني القلق والاضطراب ..
فإن مشيت خُيِّل إلي أني أمشي على رملة ميثاء ، وان تحركت خُيِّل إلي أن تحت قدمي حفرة جوفاء .

عييت من أمري ومرت الخمس ساعات كخمس سنوات عذّبن روحي وأتعبن جسدي ، ولم يكد الوقت ينتهي حتى وجدَتْ مسئولة الحضانة أمامها عينان حمراوتان من كثرة البكاء وألم الفراق فما كان منها إلا أن ... ضحكت
وقالت :
أفهم من منظرك دا انك ما نمتيش هههههههههه

سكت ولم أرد وظللت أبحث بعيني على وحوشي الثلاث

حتى رأيت روْح قادما باتجاهي وهو يجري ويبتسم وورائه ريْحانوصوت ضحكه يملأ المكان أماريتال فكانت تمشي بهدوء وهي تنظرني بعتاب يظهر جليا في عينيها .

أقبلت عليهم واحتضنتهم ، تمنيت أن أطويهم بداخل صدري من شدة افتقادهم .

دقائق مرت حتى خرجت بهم واتجهنا إلى مدرسة مريم ، انتظرتها بعض الوقت حتى خرجت وما ان رأتني حتى أقبلت مسرعة غير منتبهة لمن تصدمه أو توقعه .

وصلت إلي أخيرا وعانقت .... اخوتها
ثم جاء دوري .. ظلت تعانقني وهي تتكلم بسرعة بدون توقف ، تقص علي كل ما مرت
.. به حتى بطريق عودتنا ظلت تحكي وتحكي وتحكي
حتى تعب الرأس من حكاياها .. لكن ماذا أفعل ؟
فهكذا هم الأطفال .

مرّ أسبوع على هذا الحال لكني صرت أتابع أعمال المترل وأوصل الأولاد وأعود لهم لاصطحابهم مرة ثانية وأنهي أمر الملابس الذي لم ينتهي حتى الآن .

إلى أن غلبني ضعفي يوما واستهلك قوتي وألهب دمعتي
لم أعد استطيع القيام بأي شئ وكأن جسدي لم يعد به طاقة .

تحيرت وتحير معي زوجي واتصل بوالدتي ليسئلها عن أي نوع من الطب يجب أن أذهب للكشف ، فعِلتي مجهولة المصدر .

لكنها أجابته :

ياريت تجيبها عندنا يا بني واحنا ها نراعيها

زوجي :

مش هاينفع النهاردة الوقت عندي مش هايسمح اجيبها .. لو تعبت زيادة نشوفلها بكرة دكتور عندكم .

مرّ اليوم بعد اعطائي مسكنا ، وجاء اليوم الجديد حاملا معه ألما شديدا كأنه يجذب روحي ويعتصر قلبي .

ظللت أصرخ من شدته ،وأعاني من قسوته ، حتى صار الوعي واللاوعي متساويان في الوجود عندي .

حينها لم يجد زوجي بديلا للذهاب بي للطبيب ، اتصل بوالدتي ليقوموا بالحجز لحين تجهيزي وحضوري ، لكنها اجابته بعدما سئلته عن حقيقة التعب ومكان الألم ووقت تكراره :

بس انت هاتها واحنا ها نتصرف

تجهزت بالفعل وذهبنا إليهم وصعدت إلى سرير أختي الصغرى لأرتاح قليلا .

دقائق وأقبلت عليَّ .. ليلى ووجها يحمل إرهاقا لم أراه قبلا ، جلست بجانبي وابتسمت ..

ثم قالت :

مش ها نبطل بقى الي بيحصل دا ولا ايه النظام؟

.. نظرت لها بحيرة ثم ابتسمت لها فليلى أختي التوأم ذات شخصية فريدة
لا تتكلم كثيرا ، عقلها يكافئ دائما عقل والدي بأفكاره وأرائه ، راقية في تصرفاتها ، روحها عالية تخفق في سماء بيتنا خفوق النجوم في السماء ، وتشرق بحضورها في نفسي اشراق الشمس في الظلماء .

جاء أمر مشاركتنا الخاصة هذه كطوق نجاة انقذنا اثنتينا فأنا افهمها بدون نطق منها وهي تشعر بي بدون رؤيتي حتى .

وضعت يدها على يدي وهي تقول :
يا ترى مين فينا السبب المرة دي ؟

أنا :
أنا رأيي ما نروحش نكشف إلا بكرة علشان نشوف سبب التعب من مين فينا ؟

انتهى اليوم وجاء اليوم الجديد ، وكان الجميع مترقب ليعلم من منا صاحبة المرض ومن هي حاملة الأعراض فقط ..
وتفاجأ الجميع بذهاب المرض عني وعنها .

هنا خرج علي والدي برأيه فقال وهو ينظر إلي :
ايه رأيك تسكني معانا في العمارة يا بنتي؟

صُدمت من السؤال لكن .. ابتسامة ملئت وجهي لم استطع اخفائها :
طبعا موافقة بس ازاي ؟

والدي :
ما تشيليش همّ الموضوع ها نشوفلها حل ان شاء الله .

استردتُ عافيتي في يومين وودعت الجميع .

عدت لبيتي ثانية وعاد كل حال كما كان ..
فالمكان هو المكان ، والحيطان والعمدان ، ارهاقٌ من البنتان ، وطلباتٌ من الصبيان ،
وقدمي تدور وتدور وتدور ..
تعبت بحق ..أسئلكم .. أوليس السكون في الإمكان ؟

*****

الفصل الأخير بحياة الوحوش الثلاث ، تفكرتُ كثيرا عند كتابته ، فالنهاية دائما ما تكون مؤلمة ، لكن ما أسعدني أن هذه النهاية بصفة خاصة كانت نهاية للوحوش وبداية للملائكة..

وحوشا غزوا عالماً وخطّوا فيه بأكفهم رواية رائعة ، كانت في ..

هدوئها .. كستار الليل الذي يهدئ النفس بعد عراكها

ودبيب ألمها.. كدبيب الشفق الأحمر في حاشية الأفق

وبروز سعادتها .. كطلال عيون الكواكب من فروج السحاب

أما الملائكة الثلاث فكانوا كـــ.. شعاع البدر المنير بانعكاس صورته الفضيه على سطح النهر، أناروا الطريق بين البحار وأسعدوا النفس بمجرد ظهورهم فيه

الجـــــزءالثـــــــــامـــــــــن عشـــــــــــــــر

دخل عليَّ منتصف شهر مارس وتغير الكثير في حياتي ، فقد تحقق وعد أبي ، وقد كنت على يقين بذالك فهو لم يعد مزاحا يوما ، وبدأنا بتجهيز شقة لنا في العمارة التي يسكنها والداي وأختي التوأم

كان هذا يعتبر أقصر الحلول لمشكلة مشاركة أحاسيسنا حيث ازداد الأمر وصرنا عندما تغضب أحدنا من زوجها تجد الأخرى نفسها تكره زوجها هي ايضا بدون سبب .

عندما يزداد ازعاج الأولاد وتنفعل أحدنا تجاه أولادها تجد الأخرى نفسها في حالة هياج عصبي تجاه أطفالها أيضا .

صار الأمر مستصعباً في بعض الأحيان ، لكنها كلها ارتبطت بتباعد فترة اللقاء بيننا التي لم تكن تقل عن الشهر في كل مرة .

ومع أمر نقل السكن نكون بهذا وضعنا حلا للسيطرة على هذه المشكلة بفضل الله .

لكن لو تفكرنا بالأمر فقد كنت أشعر بأن روحي في صحراء هذه الحياة وحيدة موحشة ، فلما ارتبطت حياتي بحياة ليلى وكأن قلبها بجانب قلبي لاصقاً به ، يخفق لخفقانه ، ويتحرك بحركته ، فكنت أجد بين جوانحي من السرور والغبطة ما لو قسِّم على القلوب جميعها ما خالطها حزن ، ولا مسها ألم .

—————————

أما مريم فقد نجحت بالفصل الأول بدارستها في الصف الأول الابتدائي وبدأت الفصل الدارس الثاني .

—————————

أما عن أبطالنا الثلاث فقد توقف نزولهم للحضانة فبعد عمليات التدمير المتكررة لأركان الحضانة وألعابها وتماسكهم ثلاثتهم عند الاستجواب فلا يفشي أحدهم سر أخيه ويبين من هو الفاعل الحقيقي وراء عملياتهم التدميرية ، وجدت أن من الأسلم لي ولهم التوقف عن الذهاب للحضانة لحين تهيأهم أخلاقياً أكثر من ذالك .

—————————

تجهيز الشقة الجديدة يسري على قدم وساق لكي يتم النقل إليها في نهاية شهر مايوبإذن الله .

****

في صباح احد الأيام اتصل علي والدي وأعرب عن رغبته بالسفر للأسكندرية يومان أو ثلاث فإن أردت مصاحبتهم أمامي ساعتين لأجهز .

وجدتها فرصة يجب اغتنامها وكنت من عظيم قلبي اتمنى أن أشاهد ثلاثتهم عند رؤية البحر ماذا سيكون فعلهم .

بالفعل تجهزت في خلال ساعة وجهزت الأربعة ، مرّ علي والدي ووالدتي وأخي الأصغر وكذالك أختي الصغرى وركبنا جميعا .

قضينا يومان من أجمل ما قضيت فقد كان طقس هذه الأيام بصفة خاصة خريفي فاستطعنا النزول أمام البحر والتعطر بهواءه والتكحل برؤيته .

لن أنسى يوما رؤية ثلاثتهم وقد كانوا يتسابقون في طريقهم على الرمال ، لكن بمجرد أن لفحهم هواء البحر ، تسارعت أعينهم للإلتفاف تجاهه ، تسمرت أقدامهم أمام رؤية هذه الكمية من المياه .

ظل روْح يصرخ .. ميييييييييييه ميييييييييه

واختفى ريْحان خلفي وكأنه يخشى هجوم البحر عليه .

ظللت أضحك عليم وعلى تصرفهم خاصة أن ريتال قد تملكها الفضول فظلّت تسير بطريقها تجاه البحر تراقبه بعينها وأنا بدوري أتابعها والفضول يملؤها ، حتى وصلت أمام المياه بقليل وهنا شعرت بها وكأنها تفاجئت من مكانها ، التفتت خلفها فرأتني أقف ورائها تماما ،ثم رأيتها تتنفس بهدوء وهي تمسك يدي .

ظللنا نضحك عليهم فروْح لم يرحم أحدا من إخوته فصار يغطيهم بالرمال وضحكة شريرة تصدر منه وريْحان يصرخ به .. بطتتتتتل

الكل يضحك والدي ووالدتي إخوتي وقلبي يكاد يغادر مكانه من سعادتي بهم وبرؤيتهم حولي يزينون حياتي ويبهجون القلب والروح .

لكن لو كنت أعلم أن الغد يتربص بي كامن في مكمنه رابض في مجثمه متلفع بفضل جهلنا ، ينظر إلى ضحكنا ولهونا ولعبنا ومزحنا بنظرات المكر والخديعة ..
لما سافرت هذه السفرة ولا بدأت هذه الرحلة .
في اليوم تاليه بدأنا برحلة الرجوع .. افتتحناها بدعاء السفر ثم تهالت من جديد الفوازير والأعاذير وتعالت ضحكات الجميع حتى هدأ الحال ، رفع أخي صوت المذياع على إذاعة القرآن الكريم ظللت أستمع وعيناي يداعبهما سلطان الأحلام ، تارة أفتحهما وتارة يتملكني هو ..

وبينما أنا كذالك إذ سمعت صوتاً صارخا ما سمعت في حياتي مثله يقرع سمعي ، فأدركني من الهول والرعب ما أيقظني من نومي وكأها ساعة المحشر ونُفِخَ في الصور .

ففتحت عيناي لكني لم أرَ حساباً ولا عقاباً ، ولا موقفاً ولا محشراً ، فعلمت أنها خيالات وأوهام ، أو أضغاث أحلام .

لكن ليست كلها كذالك فقد كان ما سمعته هو صوت انحراف
عربة " مقطورة " ذات الستة عشر إطاراً ولم يكن يفصلها عن سيارتنا إلا بعض الأمتار وليس بيننا وبينها فاصل أو حجاب .

لحظة هي كل ما احتجت من وقت لالتفت بعيني في السيارة وأرى الأربعة وأماكن جلوسهم ، فبالمقدمة جلس أخي وهو السائق ، وبجانبه أبي وعلى قدمه مريم ، وبالخلف أختي وعلى قدمها روْح ، وبجانبها أمي وعلى قدمها ريْحان ، وثالثتهم أنا وعلى قدميريتال .

حِسبةً سريعة ستبين أياً ما كان مكان الاصطدام فأحد فلذات كبدي سيكون الضحية فهم واجهة كل الأماكن .

تعالى الصوت من جديد وأمام عيني انفصلت إطارت المقطورة حتى اسطوانات العجل المعدنية الداخلية وتقسمت لقطع وتطايرت جميع الأجزاء .
واتجهت جميع القطع المتطايرة في الهواء لمكان واحد ... مكاننا

تجمعت الدمعات في عيني .

من رآها يحسبني أخشى الموت وما وراءه لكني لست آسفة على الموت حين يأتيني ، فالموت غاية كل حي ، ولكني أرى أمامي عالما مجهولا لا أعلم ما يكون حظي منه وأترك ورائي أطفالا صغارا لا أعلم كيف يعيشون او من سيعيش منا ومن سيرتحل ..
ولولا ما أمامي وما ورائي ما باليت على أيهما أنتهى حالي .

ضممت ريتال لصدري وكأني أمنع عنها الأذى بتلك الضمّة ومددت يدي محاولة حماية اجزاء قلبي المتناثرة بالسيارة ، لكني علمت حينها مدى قصرها وضعفها وارتطمت أول قطعة بزجاج السيارة ثم الثانية ثم الثالثة وانهالت الضربات ،وصوت والدتي :

خلي بالك يا ابني .. يارب استرها .

واتجه والدي بجسده للأمام وغطى جسد مريم بجسده ، وحاولت اختي التخفي وراء كرسي أبي هي ورَوْح ، أما أمي فهي أمي ...
فقد رفعت أذرعها وضمتني أنا وأختي وما نحمله على أقدامنا وقدمها ، وكأنها ستحمينا بتلك الطريقة ، لكنها لن تيأس كما لم أيئس أنا .

ومدتُ يدي لمريم فلم تصلها وكان بالفعل وحوشي الثلاث في أحضاني فقد ضيقت أمي ذراعها علينا وضمتنا تحت جناحيها ، فاصطكت الأقدام بالأقدام وامتزجت الأنفاس بالأنفاس .

حينها مدتُ يدي للوحيد الذي لم يجد من يضمه ويرعاه وهو أخي ذي العشرون عاما ، فالكل مشغول بأمانته التي على أقدامه وهو مع أمانته التي بين يديه .

لمحته عيني وهو يحاول السيطرة على السيارة وأيديه تلتف على عجلة القيادة يمينا ويسارا ، فمددت يدي إليه فلم تصل إلا لظهره .

شعرت بنفَسّه وكأنه متوقف من هول ما يمر به ، فحركت يدي حركة بسيطة ليشعر بسخونتها عل ظهره وما هي الا لحظة وأحسست بالهواء يتدفق لرئتيه ومازال كفاحه مستمر للسيطرة على السيارة .

سمعت والدي وهو ينادي :
خلي بالك خلي بالك الاسطوانات ها تخبط .

وسمعنا صوت الأصطدام وتكرر الصوت مرات عديدة .

حتى مر أخي من المقطورة وأشلائها ، وظل يسير بالسيارة لأول استراحة في الطريق وعندها توقف وفُتح الباب ونزلنا جميعا .

ظل والدي يفتش بنظره السيارة خارجها وداخلها ، أعلاها وأسفلها ، لكن هل من المعقول ما يراه !؟

نظر والدي الينا وهو يقول :
سبحان الله العربية ما فيهاش خدش .

تحيرنا جميعا وأسرعنا بالوقوف ، زادت الحيرة فقد رأينا القطع المتطايرة ورأينها وهي تصطدم بنا حتى اسطوانات المعدن لم تعبر طريقها بداخل السيارة .

كل منا عقله يردد الكثير من الأسئلة لكن قولا واحدا رددناه بدون اتفاق ... الحمد لله .

جلس والدي وهو ينظر إلي ويقول ضاحكا :
طيب كدا عرفنا بقى كل سفرية تبعتي معانا الملايكة بتوعك يحرسونا .

كانت مريم بجانبي حينها فاحتضنتها بشدة وأنا أنظر لوحوشي الثلاث وقد افترشوا الأرض بأجسادهم في حديقة الاستراحة والشمس تداعب أعينهم فمدوا ايديهم يحاولون منعها من مضايقتهم لكن كلما حاولوا تغطية أعينهم واختفت الشمس عنها ظنوا ان أشعة الشمس

قد ذهبت فرفعوا ايديهم عن أعينهم لكن تظل الشمس تعود إليهم وتداعبهم وتعكس ضوءا قد ملأ قسمات وجوههم فكأنني أرى كيانا مضيئا وابتسامة رقيقة تنبع منهم .

فتسائلت في نفسي .. لماذا دائما أنعتهم بالوحوش وهم ملائكة !؟
لقد أنقذنا الله من هذه الحادثة ولا أحد يدري السبب .. هل وجودهم أم لا ؟
لكن أيا كان السبب فهم ليسوا وحوشا أبدا .

نظرت إليّ والدتي وربتت على ظهري وهي تقول :
خلاص يا بنتي الموضوع عدا على خير ليه لسة بتعيطي ؟

لكني لم أستطع الرد فكلما حاولت التحدث غلبني مشهدهم وإحساسي وريتال بين يدي وأنا أضمها لصدري وكأني بضمتي لها سأمنع روحها أن تغادرني ، وكأني بإخوتها قد جمعتهم كلهم بجسد أحدهم محاولة الدفاع عنه والتضحية بنفسي لأجله ..
ماذا أقول وماذا أُبين لأمي !؟

أمسكت الهاتف لاتصل بزوجي لكن يدي لم تكد تلمس الهاتف حتى وجدت اتصالا وارداً وكانت ليلى تحدثني وأنفاسها تكاد تلفحني حرارتها من الهاتف وهي تصرخ بي :
انت كويسة ؟

سئلتها بقلق :
اه الحمد لله .. مالك ؟

فقصت علي احساساً داهمها منذ دقائق فلم تشعر بنفسها إلا وهي تتصل بنا .

أنهيت مكالمتي معها بعد أن قصصت عليها ما حدث ، وقررت أن لا اتصل بزوجي كي لا أقلقه على حالي انا والأولاد .

عدتُ لمنزلي وبدأت برؤية الأمور بغير عين كانت تراها ، وأتابع الأحوال بغير مداها ، ونظرتي لوحوشي تغيرت عن ذي قبل .

فقد مات وحوشي كموت الليل بظهور النهار ، فماتت بموتهم الآلام والأحزان ، ولم يبق من الأعاصير والزوابع ما يعترض حياتي حتى أرتأيت فيه الخير فيما يصيبني والجزاء فما يتعبني ويؤلمني .

رحلت الوحوش ونهضت الملائكة .. أو ربما كانوا ملائكة طوال الوقت لكن العين كانت تغلبها غشاوة ..!؟

بدأ العد التنازلي لمغادرة منزلي الذي قضيت به ثماني سنوات من عمري منذ أن كنت بالثامنة عشر حتى بدأت الاقتراب من السادسة والعشرون .

راقبت الحوائط والأراضي وهي تختلف يوما بعد يوم والأثاث كذالك وهو يتدمر بيد من لا يرحم ، وما تناثر من زجاج وما تكسر من أرفف وعمدان .

ذكريات حملتها تلك الشقة وملئت روحي بنفحات مجالستها ، ما ارتضيت أن أتركها دون وداع ، أو أدع نفسي تنساها كما ستنساني .

جلست وبدأت بأولى صفحات روايتي التي حملت فيها ما مر علي بثلاث سنوات .

لم أرد أن تمر تلك الذكريات بدون تدوين ، أو تذهب تلك الأفاعيل بدون تخزين .

علّها تكون ذكرى أنقلها لمن يقرأها فيعلم أنه وراء المظهر الحسن والملبس الحسن نفساً تعبت وروحت شقيت في سبيل خروجها وجمالها ومتابعتها ومصابرتها ، وأنه يجب على المرء قبل النظر لما أمامه أن يتمعن النظر فيما وراءه فلربما رأى بين السماء والأرض عظيم الفكر وأرفعه .

أما لملائكتي ..
فهل سيطول بكم الحال أن تقرأوا مثل تلك الصفحات التي كتبت شاهدة عليكم .

فلا داعي للذعر فهي ليست شاهدة عليكم بل عليّ ، شاهدة على عملي علّي أُقابل به ربي وأسئله المغفرة لي ليس لأني مؤمنة به فهذه أمور نجهل حساباتها .

لكن سأسئله المفغرة لي لأني كنت أمّاً يوما وسأحمل معي كتابي هذا ، علّه يكون شاهدا لي يوم القيامة .

ملائكتي ..
اسألوا الرحمة لتلك التي سكن حبكم قلبها قبل رؤياكم ، وغفلت عن ألمها ما دام الأُنس يغشاكم، واتخذت لكم من حنايا ضلوعها سريرا قبل سريركم ، ومن أحشائها مهاداً قبل مهادكم ، وحينما رأت كأسي الشقاء والنعيم مقدما لها شربت الأولى وآثرت الأخرى لكم.

*****

.. انتهت بفضل الله..